سوريتنا

«عندما يقرر العبد أن لا يبقى عبدا فإن قيوده تسقط»
غاندي

صفحتنا على فيس بوك:
www.facebook.com/souriatna
souriatna@gmail.com souriatna.wordpress.com

سوريتنا | السنة الأولى | العدد (51) | 9 / 9 /2012

أسبوعية تصدر عن شباب سوري حر

صورة الغلاف: لفراس الشاطر

الجرحى السوريون في تركيا: بتر الأطراف أسهل

تقرير: إبراهيم حمودة – إذاعة هولندا العالمية

في الوقت الذي أبدى فيه مجلس الأمن الدولي قلقه حول سلامة المدنيين وسط تصاعد وتيرة العنف واستخدام النظام السوري المتواصل للطائرات والمروحيات لقصف المناوئين والمدنيين، أعلنت بريطانيا وفرنسا عن إمكانية التدخل العسكري بحسب الظرف لخلق منطقة عازلة لحماية المدنيين. من ناحية أخرى أعلنت تركيا قبل بضعة أيام إغلاق الحدود أمام سيل اللاجئين السوريين الذي يعبرون الحدود طلبا للأمان قائلة إنها لا تستطيع استقبال إعداد أكثر مما هو الآن على أراضيها.

تحدث القسم العربي هنا أمستردام إلى اثنين من الناشطين الذين عادا لتوهما من المنطقة الحدودية بين تركيا وسوريا، منطقة كليس الحدودية. عاد الناشطان ريدر عبد الفتاح وأندريه عبد اللّه بعدد من الحكايات والمشاهدات والصور التي تعطي بعض اللمحات لفظاعة المعاناة اليومية التي يواجهها اللاجئون السوريون في تركيا والوضع الإنساني بالنسبة للجرحى والمصابين تحديدا.

٣٠٠ ألف

تقول الأرقام الرسمية إن عدد اللاجئين السوريين في تركيا يراوح الـ 80 ألفا ولكن الناشط أندريه عبد اللّه يقول إنه وحسب ما رآه فإن الإحساس الذي يراوده بأن العدد يصل إلى 300 ألف من السوريين في تركيا يعيش معظمهم في بيوت مستأجرة أو تتم استضافتهم بواسطة أفراد من أسرهم متواجدين في تركيا وتعتبر حالتهم أفضل من غيرهم في دول الجوار الأخرى مثل الأردن ولبنان.

تستقبل المستشفيات التركية حوالي 100 من الضحايا لكل مستشفى يوميا معظمهم إصاباته خطيرة وتحتاج لعمليات معقدة، ونظراً لضيق الوقت المتوفر لمعالجة الضحايا يفضل الأطباء قطع الأجزاء المصابة. أما عن نقل المصابين من داخل الأراضي السورية عبر الحدود إلى تركيا فهو يمثل المرحلة الأصعب والأخطر. يقول الناشط ريدر عبد الفتاح إن "اقرب مدينة عبر الحدود داخل تركيا تبعد احد عشر كيلومترا تقطع عادة على ظهر دراجة نارية أو سيارات نقل، أما بالنسبة للإصابات الكبيرة كإصابات الرأس مثلا فيجب أن يؤخذ المصاب إلى أنطاكية التي تقع على مسافة 80 كيلومترا من الحدود ولك أن تتخيل المعاناة في قطع مثل هذه المسافة".

بالإضافة إلى ذلك هنالك العديد من المشافي التي تقدم خدمات صحية بسيطة مثل نظافة الجروح وتغيير الضمادات. يقول ريدر إن هذه البيوت يديرها سوريون وتدعم ماليا من قبل أفراد وشخصيات عربية من دول الخليج وليبيا ويعمل فيها الكثير من المتطوعين ولكن لانعدام الخبرة فإن معظم جروح الذين يبقون فيها تتعرض للالتهاب وتسوء حالتهم أكثر.

تركيا لا تعترف باللاجئين

وبالسؤال حول وجود منظمات طوعية متخصصة مثل أطباء بلا حدود يقول ريدر أن ثمة مشكلة تتمثل في أن تركيا لا تعترف باللاجئين السوريين كلاجئين وبهذا يتعذر دخول المنظمات الأجنبية والطوعية العاملة في الحقل الإنساني إلى تركيا مما يلقي بالعبء على المستشفيات التركية بقدراتها المحدودة وعلى جهود اللاجئين السوريين الذاتية في إنشاء وإدارة مثل هذه المشافي التي تتخذ من بيوت ومساكن عادية مقار لها.

من أكثر الأشياء التي عاد بها الناشطان تعبيرا هي صورة الطفل زكريا البالغ من العمر 8 سنوات والذي أصيب أثناء قصف قريتهم بالقرب من إدلب. والداه أيضا مصابان ولكنهما ما يزالان في سوريا. عم زكريا هو من أسعفه واصطحبه إلى تركيا. زكريا لدية مشكلة (بالإضافة الكسور العظمية) فان جلد ساعده الأيمن قد توقف عن النمو والجرح لا يندمل. هو يحتاج إلى عمليات جراحية معقدة. وطبعا الإمكانيات غير متوفرة.

أعداد كبيرة

نرى في صورة أخرى مجموعة من ضحايا العنف في احد المشافي. اثنان من الذين في الصورة لم يكملوا علاجهم بالصورة المطلوبة. المستشفيات التركية جيدة عموما ولكن العدد الكبير من الجرحى والمصابين يفوق طاقتها نظرا لقلة الأطباء الأخصائيين وقلة المال.

يقول أندريه عبد اللّه احد النشطاء الذين عادوا من الحدود التركية السورية الأسبوع الماضي بأن مناظر الجرحى والمصابين والكيفية التي يرحلون بها ويتلقون بها العلاج تجربة بشعة ولكن لك أن تتخيل بأن الأحوال في سوريا أسوأ بمائة مرة من المشاهدات التي تراها على الأراضي التركية عند الحدود بين البلدين.

تركيا أفضل من غيرها

يقول الناشط السوري ريدر عبد الفتاح بأن حالة اللاجئين في الأردن ولبنان أكثر سوءا بكثير من بني وطنهم في تركيا، ففي الأردن يعيشون في بيئة صحراوية تنعدم فيها المياه والغذاء، وقد أدى تواجدهم لظهور مشاكل اجتماعية حتى داخل المجتمع الأردني.

أما في ما يخص قرار تركيا بعدم استقبال المزيد من اللاجئين فيقول ريدر عبد الفتاح بأنه لا يستطيع أن يلوم سوريا، وأنه كغيره قد سمع بهذا القرار الذي يرده للأعداد الهائلة التي تقدر بالآلاف من اللاجئين الذين يعبرون الحدود، وأن إعداد معسكرات تؤويهم ليس بالمسألة السهلة لأن إنشاء معسكر واحد وتجهيزه يحتاج لأسابيع أحيانا.

النظام يستخدم «القنابل العنقودية» ضد المدنيين و«ستار النار» لمنع مغادرتهم

وزعت دمشق قواتها، التي تثق بقياداتها وضباطها، على امتداد الجبهات العسكرية وبدأت تتعامل مع المعارضين، والدول التي تساندها، بقسوة ووحشية بعدما نشرت فيالق من الوحدات الخاصة قرب الحدود الأردنية والتركية، ودفعت بعناصر من الحرس الجمهوري الشديد التدريب إلى حلب المستعصية ودير الزور، وسط قلق كبير من انشقاق وحدات عسكرية قد تطلب مساعدة من دول الجوار. ولم توفر القوات النظامية مخيم اليرموك جنوب دمشق حيث قُتل 20 فلسطينياً بقصف مدفعي وبقذائف الهاون. ونقل مراسل «الحياة» في عمان عن لاجئين سوريين حديثهم عن «ستار النار» الذي تطلقه القوات النظامية على القرى والمناطق الحدودية بحجة منع التسلل وإدخال السلاح، أو حتى السماح بمغادرة البلاد واللجوء إلى الأردن أو تركيا.

وأفاد تلفزيون «لعربية» عن حشود عسكرية كبيرة في تل شهاب المحاذية للحدود الأردنية ونقل عن ناشطين قلقهم من مجازر قد تحدث هناك. ونقلت وكالة «اسوشييتد برس» عن «المرصد السوري لحقوق الإنسان قوله «أن مئات الجنود أعادوا احتلال تل شهاب بمساندة من 20 دبابة». واتهمت منظمة «هيومن رايت ووتش» النظام السوري باستخدام «قنابل عنقودية» ضد المدنيين.

ومع الحشود العسكرية الواسعة التي نُقلت من منطقة دمشق ومرتفعات الجولان إلى مقربة من الحدود التركية تم دفع وحدات من قوات الحرس الجمهوري إلى حلب. وذكرت وكالة «فرانس برس» أن لواء في الجيش السوري كان يراقب، من غرب المدينة وعلى جهاز «آيباد»، تفاصيل خريطة تبث عبر برنامج «غوغل ارث» وتظهر فيها كل منازل حي سيف الدولة. وعلى طاولة قريبة، وضعت أجهزة اتصال عائدة لمقاتلين من المعارضة يستخدمها اللواء للتنصت على محادثات هؤلاء والبقاء على اتصال مع ضباطه المنتشرين على الأرض.

وقال اللواء في الحرس الجمهوري، والذي كان يتولى العمليات العسكرية في أصعب أحياء المدينة لأحد ضباطه «تقدم حتى المربع الرابع، لكن لا تطلق النار على يمينك لأنني أرسلت فريقا آخر من هذه الناحية حتى نحاصرهم».

وتتعامل القوات النظامية مع المعارضين في حلب خلافاً لما جرى في جبهات أخرى مثل حمص (وسط) حيث كانت تبادر إلى القصف قبل نشر القوات الراجلة. وتخوض هذه القوات، للمرة الأولى، حرب شوارع حقيقية تفرض عليها التسلل نحو منازل وشوارع ومفترقات طرق، على أن يأتي الدعم من الدبابات والمروحيات في وقت لاحق. ويقول عقيد من الحرس في حي سيف الدولة: «نحن منقسمون إلى مجموعات تضم كل منها 40 رجلاً محملين بأسلحة رشاشة وصواريخ مضادة للدروع».

وأرسل الجيش السوري منذ بداية آب خيرة قواته والأكثر كفاءة في الحرس الجمهوري، الذي يتولى كذلك حماية دمشق لتولي العمليات في الغرب، والقوات الخاصة في الوسط. واستولت القوات الخاصة أخيراً على حي الجديدة المسيحي في المدينة القديمة وتقدمت باتجاه حي السبيل علي.

وتتنوع روايات سيطرة المعارضة على أحياء في حلب. وتقول إحداها أن المعارضين دخلوا المدينة في البداية من هذا الحي، بعدما وصلوا مع نسائهم وأطفالهم وأسلحتهم بحجة الهرب من المعارك في إدلب. وتفيد الرواية الثانية أن مدير استخبارات حلب اللواء محمد مفلح «خان النظام» وسلم مفاتيح المدينة إلى المعارضين قبل أن ينشق ويغادر إلى تركيا لكنه قتل قبل أن يصل إليها.

وأفادت «فرانس برس» أن حلب أصبحت مدينتين متناقضتين. في الوسط، وعلى رغم أصوات الانفجارات القوية أحياناً، تفتح المحلات أبوابها وتبقى المطاعم والمحلات التي تبيع المثلجات تستقبل الزبائن حتى منتصف الليل، وهو الحال مثلاً في حي العزيزية المسيحي أو الموغامبو المسلم، علماً بأن الكثير من السكان يفضلون اللجوء إلى مدن أخرى في دول أخرى في المنطقة مثل بيروت والقاهرة. في حين تحولت حلب القديمة، التي تسيطر على غالبيتها المعارضة المسلحة، إلى مدينة تعاني النقص في المواد الغذائية وإطلاق النار ما يدفع السكان على العودة إلى منازلهم عند حلول الليل وتفادي خطوط التماس.

وأفادت مصادر في باريس أن فرنسا تدرس إمداد المناطق التي باتت خارجة عن سيطرة النظام السوري، والتي تعتبرها «مناطق محررة»، بأسلحة مضادة للطائرات، لمواجهة الاعتماد المتزايد لقوات النظام على القصف الجوي لهذه المناطق.

وقال مصدر دبلوماسي فرنسي أن «المناطق المحررة ليست بمنأى عن القصف سواء بواسطة المدفعية أو الطائرات التابعة للنظام لكن هذا لا يعني أنها ستعود إلى سيطرة النظام الذي بات غائباً عن بعضها منذ حوالى خمسة أشهر.. سكان هذه المناطق يطالبون بتزويدهم أسلحة مضادة للطائرات وهو مطلب لا تهمله فرنسا بل تعمل على دراسته جدياً». لكنه تحدث عن «الصعوبات والتبعات المعقدة»، مشيراً إلى عمليات تسليم أسلحة «انتهت في أيدي غير مرغوب بها في منطقة الساحل»، ما يوحي بأن تأمين هذا السلاح المضاد للطائرات رهن بتنقية المعارضة السورية ووضع هيكلية واضحة وتسلسل للقيادة.

معتقلون سوريون يستعيدون حريتهم حفاة عراة بالسروال الداخلي، وهكذا عشنا فترة السجن؟

فتحت الشرطة باب مقرها الرئيسي في دمشق السبت ليعبر من خلاله العشرات نحو حرية مستعادة، استقبلها بعضهم بالسروال الداخلي، وآخرون من دون حذاء أو شعر، بينهم من تظهر علامات المعاناة على ظهره، أو ساقيه، ومنهم من تحمل وجوههم ندبات.

باسل (31 عاما)، الموظف الحكومي، اعتقل في زملكا في ريف دمشق بعدما أوقفته الاستخبارات لدى عودته

إلى منزله في الضاحية المعارضة للنظام برفقة زوجته وابنه، والسبب المعلن: بطاقة هوية ممزقة.

وفيما ينظر إلى هذا التفصيل على انه أمر عادي في بلد آخر، إلا أن عقوبته هي السجن في سوريا، فقط لان الشيخ السوري عدنان العرعور المعارض للنظام والمقيم في السعودية طلب في إحدى خطبه من مناصريه تمزيق هوياتهم.

ويقول باسل الذي خرج من السجن مرتديا قميصا داخليا "لم أكن حتى على دراية بهذه الخطبة، وقد علمت بها عن طريق الذين حققوا معي في السجن".

ويضيف "أمضيت 32 يوما في زنزانة لجهاز استخبارات سلاح الجو، ونقلوني إلى هنا اليوم حيث علمت انه سيتم إطلاق سراحي استنادا إلى مرسوم لبشار الأسد".

وباسل ليس الوحيد الذي عاش معاناة مماثلة. فعماد (25 عاما) الذي اعتقل داخل باص يؤكد أن عناصر الاستخبارات "طلبوا مني اللحاق بهم من اجل إجراء تحقيق قصير معي يمتد لعشر دقائق، لكن هذه الدقائق العشر امتدت عشرة أيام. لقد قاموا بضربي حتى اعترف بأنني اتبع تعليمات شيخ لا اعلم بوجوده حتى".

في مقر الشرطة، يقوم عناصر الأمن بتجهيز أوراق الخروج، وسط رائحة لا تحتمل مصدرها السجناء الذين لم يستحموا منذ أن وطأت إقدامهم أقبية السجون.

ويضع هؤلاء بصماتهم على الأوراق حين تجهز وتحديدا تحت عبارة "اقر بأنه أطلق سراحي في الأول من أيلول / سبتمبر من قبل قيادة شرطة محافظة دمشق، وأنني نادم على تصرفاتي وأتعهد بالا أشارك في تظاهرة غير مرخصة بعد اليوم".

وبينما ينشغل السجناء بأوراق خروجهم، يقول مسؤول في حزب البعث يدعى موفق الباشا بصوت عال "رئيس الدولة يريد أن يقوم بإصلاحات لكن أعداء سوريا يريدون تدمير سوريا يجب أن نساهم في الدفاع عن البلاد".

عندها يصفق السجناء وعددهم 158 من بين 267 استعادوا حريتهم اليوم في أنحاء البلاد، ثم يهتفون "بالروح بالدم نفديك يا بشار".

وخارج المقر، يبرز رجل مرتديا ملابس النوم وقد رفض كشف اسمه، ساقيه المنتفختين.

ويقول الرجل الثلاثيني المتحدر من حرستا في ريف دمشق والذي لم ير الشمس طوال 32 يوما "قاموا بضربي حتى اقر بمشاركتي في تظاهرات لم أشارك بها. لست مع هذا الطرف أو ذاك".

من جهته، يروي عامر (26 عاما) بتأثر "بكت والدتي عندما سمعت صوتي بعدما كانت تجهل ما إذا كنا أنا وشقيقي على قيد الحياة"، واعتقل عامر وشقيقاه في منطقة المزة الراقية في غرب دمشق في الثامن من آب / أغسطس. وفي حين أفرج عن شقيقه الأصغر (17 عاما) بعد أربعة أيام، بقي هو وشقيقه عماد (25 عاما) في السجن.

ويقول "لم نفعل أي شيء ولم يجدوا شيئا عندنا. استطيع أن أقول أن أول ما سأقوم به لدى عودتي إلى منزلي هو أن اقبل أهلي، واستحم، وأتناول الطعام، وأبدأ بالبحث عن طريقة لمغادرة هذه البلاد بأسرع وقت حتى استقر في ابعد مكان ممكن من هنا".

ويروي عامر الذي يملك شركة للأدوات الصحية "كنا نحو 60 شخصا في غرفة صغيرة مساحتها ستة أمتار بأربعة أمتار، وكان على عشرين منا أن يظلوا واقفين. ثلاثون ثانية كانت المدة الممنوحة لنا لقضاء حاجتنا، وعند النوم كان على كل واحد منا أن يطوي ساقيه وينام ورأسه بين ركبتيه".

على رصيف قريب، يتمشى احمد (36 عاما) حافي القدمين، مرتديا سروالا ممزقا، وهو يبحث عن طريقة لبلوغ منزله في القلمون في ريف العاصمة.

وبحسب قوله، فقد خطفه عناصر من الجيش السوري الحر بعدما قام بالإبلاغ عن مقاتلين في صفوفهم، فأطلقوا رصاصتين في ساقيه عقابا له، ثم أفرجوا عنه.

ويتابع احمد "عثر على عناصر من الجيش ونقلوني إلى مستشفى حتى أتلقى العلاج.

وهناك، اعتقلني عناصر من الاستخبارات وسجنوني لمدة شهرين. والآن لا املك أي مال للعودة إلى منزلي".

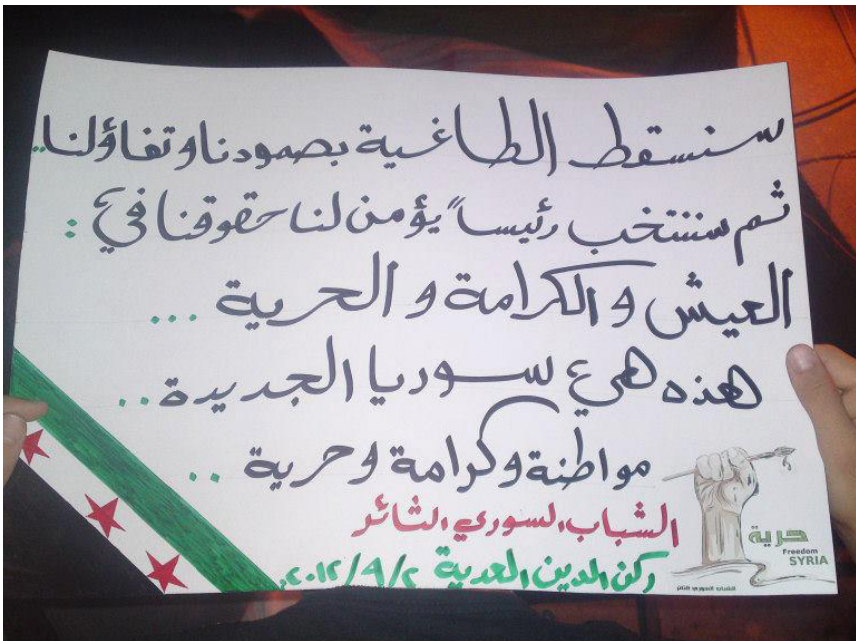

أوجاع وطن

أين كنتم حين كنا بحاجتكم؟

■ عروة المقداد

المشهد غالباً معكوس، الكاميرا ليست صادقة دائماً. والتحليل سهل، الكلمات ليست بثقل قذيفة تشطر الذكريات، والخريطة الباردة على الجدران لا تُظهر عنفوان الذاكرة. والاستديو خال من المشاعر، لا تتدفق فيه حميمية مظاهرة؛ إنه يفتقر للحقيقة. لأن الحقيقة يمتلكها من كان ينظر من نافذته وهو يشاهد سرب طائرات تسلي نزق الانتظار المرير، وتختفي في اليوميات القادرة على قهر أعنف قذيفة، عندما تتحول إلى مجرد عادة.

نتسابق كل يوم لامتلاك حقيقة ما يجري على الأرض، أخبار تتلقفها المحطات الإخبارية. تقارير ومقالات، سياسيون يجتمعون وينفضون بابتسامات أو بسحنات كدرة. سهرات طويلة من التحليل والتفنيد، اتهامات وانتقادات. ثمة عنف والثورة تنحرف عن مسارها. جيوش من الصحفيين تتسلل عبر الحدود، تعد بعض التقارير والصور وتترك ابتسامات عابرة لتأفل. وفي آخر النهار يخرج أبو عمر ويلقي ملخص الأحداث باعتيادية الموت المتواصل.

وفي الكادر الضيق الذي يطل منه لا يحفل بالانتقادات التي توجه للصورة التي التقطها والتي تحتوي على كثير من العنف أو المشاهد القاسية. لا يهتم بالجدال الدائر بين المثقفين حول الثورة وأوصافها، لا يوّصفها هل هي حربٌ أهلية أم معركة. إنه هناك يمارس المهمة التي وجد نفسه أمامها وهو وحيد يواجه أرتالاً من الأمن يمطروه بالغاز والرصاص والقنابل. أمسك كاميراته ليدافع عن القيمة التي أحسها وتذوقها. أبو عمر هو ذاته المتظاهر في بداية الثورة وهو من حمل السلاح عندما تآمر الجميع على ثورته. وهو من يصدر النكت ويسخر من واقعه وهو المثقف والحرامي والأزعر إنه وحده؛ وهو وحده من نطالبه جميعاً بلعب كل الأدوار. القيمة الأخلاقية بالنسبة له هي الشيء الوحيد الثابت في الثورة، لكنه لا يستطيع أن يجعل من القيمة الأخلاقية التي خرج للدفاع عنها نموذجاً وقدوة. ليست مهمته، إنها مهمة الصحفي الذي ينقل دفاعه عن القيمة وإثباتها، إنها مهمة المثقف الذي من واجبه أن يبلورها وأن يقدمها كقدوة. لم يفهم المثقفون سبب تحول مسار الثورة، لم يفهموا أن الإنسان البسيط لا تعني له المصطلحات، وأنه في كثير من الأحيان يجهلها وأنه بحاجة إلى من يكون بجانبه ليعلمه تارة وليتعلم منه تارة أخرى.

السلمية أو السلاح هي مجرد خيار أملاه الواقع عليه. وأن الوسيلة بالنسبة له لا تغير من عدالة القضية ولا من القيمة الأخلاقية. ولكن الصورة كانت معكوسة من البداية، فمنظرو السلمية لم يوعزوا لأهل درعا بالتحرك، لم يتواجدوا هناك عندما انطلقت الثورة، وعندما تحول مسارها هل تواجد المثقفون على الأرض بين الناس لينصحوهم ويقدموا المشورة لهم. إن التنظير ليس كافياً في الثورات، الكلمة يجب أن تتحول إلى فعل وممارسة. والمثقف إذا تواجد بين الناس قدم لهم النموذج والممارسة والنظرية ليستطيعوا السير عليها.

لقد وجد الإنسان البسيط نفسه على الأرض الصحفي والمنظر والخبير في التحليل. هل ذنبه عندما يقع في خطأ إعلامي أو عندما يبالغ أو ينقل صورة غير حقيقة، بالطبع لا إنه خطأ الصحفي الذي تخلى عن مسؤوليته الأخلاقية واختار الصمت أو أن يكون مجرد وسيط أو ناقل. هل ذنبه أنه ارتكب فعل يبدو مشروعاً من وجهة نظره البسيطة والتي هي الانتقام أمام القسوة الهائلة والعنف الغير مسبوق؟ إنه ليس ذنبه، ذنب المثقف الذي لم يتواجد بجانبه أثناء تلك المعركة ليقول له أن ذلك لا يجوز أخلاقياً وإنسانياً وأن مثل تلك التصرفات قد تسيء إلى عدالة القضية التي يدافع عنها.

لقد تعلمنا يوماً ما في المدارس والجامعات لنعلم أبناء شعبنا ونقدم له المشورة والنصيحة ولنكون إلى جانبهم في الموقف الصعب. وذات يوم سوف نسائل أين كنا عندما كانت تقصف سورية بالطائرات؟ لماذا لم نكن هناك معهم لنقول جنباً إلى جنب، في المظاهرة وفي المعركة وتحت القصف؟!

لاجئو «الزعتري» يصارعون الصحراء

مخيم الزعتري | جمال عبد الهادي

يعيش اللاجئون السوريون في مخيم الزعتري في الأردن أوضاعاً إنسانية صعبة. وبين شكاوى اللاجئين ومطالبتهم بمغادرة المخيم ومخاوف الأردن من الانعكاسات الأمنية والسياسية والاجتماعية لخطوة كهذه، يمضي اللاجئون أيامهم يصارعون غضب الصحراء وظروفها القاسية

تجلس اللاجئة السورية، فادية، أمام خيمة في مخيم الزعتري (75 كيلومتراً شمال شرق الأردن) تبرعت بها منظمة اليونيسيف، تقلب ناظريها في السماء كأنما تنتظر هبوط الفرج. تنهمر الدموع من عينيها بصمت وهي تهدهد رضيعاً شاحباً يسعل بشدة ويبكي بلا انقطاع. تتنهد والحسرة تلف صوتها قبل أن تقول «يا ليتني مت قبل أن أفر إلى هذه الصحراء، الموت أفضل من حياة بلا كرامة».

وبينما تحلّق حولها أطفالها الثلاثة، معن ويزن وسمية، بثيابهم الرثة المتسخة وقد حفر البؤس على محياهم كآبة عميقة، تشكو فادية معاناتها قائلة: «ولدي مراد كلما تعافى مرض ثانية بسبب حساسيته من الغبار الكثيف». وتضيف «حتى الحيوانات لا تستطيع أن تعيش هنا».

حال فادية يعكس صورة لواقع معاناة مأساوية يكابدها قرابة 23 ألف سوري في مخيم الزعتري، دخلوا إلى الأردن بطريقة غير مشروعة، بعدما هربوا من سوء الأوضاع في بلادهم، وفقاً لما يؤكده مدير التعاون والعلاقات الدولية في المفوضية السامية للاجئين، علي بيبي، لـ«الأخبار».

ويعاني اللاجئون أوضاعاً صعبة في المخيم الذي بات أشبه بسجن كبير تلتف حوله الأسلاك الشائكة، وتحيط به الحراسات، فيمنع الدخول أو الخروج منه إلا بإذن من السلطات الأمنية. الغبار يتطاير من كل صوب وحدب، يسفع وجوه اللاجئين في ظهيرة لاهبة، ويقتحم خيمهم التي تعصف بها الرياح كأنها مارد متوحش يريد اقتلاعها.

غير أن تردي الواقع المعيشي في «الزعتري» لا يقتصر على درجة حرارة عالية في مخيم صحراوي، غباره يعمي العيون، بل يمتد إلى الاصطفاف لأوقات طويلة على طوابير المياه، وجبات الطعام، والليل الحالك، الذي تغيب عنه الكهرباء والأغطية في برد قارس.

الضغط يولد الانفجار

نتيجة ظروف المعيشة السيئة في المخيم يطالب اللاجئون مغادرته إلى مناطق مؤهلة أو إعادتهم إلى أربعة مخيمات كانوا يقطنونها قبل افتتاح مخيم الزعتري أخيراً، ثلاثة منها في الرمثا (شمال البلاد) وواحد في محافظة المفرق (شمال شرقي البلاد).

ويجد مطلب اللاجئين بمغادرة المخيم مساندة من متضامنين، أبرزهم الهيئة الأردنية لنصرة الشعب السوري وحملة «وتعاونوا» الشبابية، التي طالبت مفوضية الأمم المتحدة في غير اعتصام احتجاجي «بإغلاق مخيم الزعتري، ونقله إلى مكان أكثر ملائمة للظروف الإنسانية».

وبالرغم من أن رئيس المفوضية السامية للاجئين، أندرو هاربر، أبدى استياءه من وضع المخيم، إلا أنه طلب من المتضامنين أن «لا يتفاءلوا بإغلاق المخيم قريباً، فلا بديل آخر». وهو ما دفع 200 شخص إلى العودة إلى بلادهم «طوعاً» وفقاً لوزير الدولة لشؤون الإعلام والاتصال الناطق باسم الحكومة سميح المعايطة.

استضافة بالإكراه

ترفض الحكومة الأردنية نقل المخيم للكثير من الأسباب. وقد لمّح إليه وزير الخارجية، ناصر جودة، يوم الخميس الماضي. وأشار أمام مجلس الأمن الدولي إلى إمكان «اتخاذ» إجراءات تقييدية لدخول اللاجئين السوريين، لما يترتب «على دخولهم من آثار اجتماعية وأمور تمس النظام والأمن العام».

من جهته، أكد وزير الإعلام، سميح المعايطة، أن «الأردن متضرر من اللجوء، فهو يؤثر فيه اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً، لكننا مجبرون عليه»، منبهاً إلى أن الأردن بات «عاجزاً عن استيعاب المزيد من اللاجئين، فقد تجاوز عددهم ألف لاجئ».

وبحسب وزير أردني، رفض ذكر اسمه، فإن «الأوضاع الآن قد تحسنت في المخيم، ونحن نعمل على تحسينها أكثر، لكن التدفق المفاجئ للاجئين بدأ يزداد وقد تجاوز في الأيام الأخيرة ألفي لاجئ في الليلة الواحدة».

ولا يخفي المسؤول الحكومي وجود معلومات مؤكدة لديه بأن «كثيراً من قاطني المخيم يرغبون في العمل مثل أقرانهم الذين دخلوا البلاد وفق نظام الكفالات». ولفت إلى أن «لاجئي المخيم يعرفون أن اللاجئين السوريين في بعض المدن تسللوا إلى سوق العمل، وباتوا يحصلون على أجور عالية»، في بلد محدود الموارد والإمكانات، وبلغت نسبة البطالة فيه العام الماضي 12، 9 في المئة.

اللاجئ السوري، حمدان المصري، أكد أنه وأقرانه من السوريين «ملّوا من السكن في العراء ومن مساعدات الذل»، مطالباً الحكومة بالعودة عن قرارها وقف العمل بنظام الكفالة للاجئين السوريين، الصادر في تموز الماضي. ويضيف المصري «هناك تمييز واضح، فكثير من السوريين يقطنون مدينة المفرق (شمال شرق عمان) والرمثا (شمال عمان) ويحصلون على مساعدات مالية وعينية، ويستطيعون العمل ولا أحد يحتج على ذلك».

وبات بالإمكان مشاهدة عشرات السوريين العاملين ليس فقط في مدن مثل الرمثا المفرق واربد، بل في المدينة عمان. فالعمالة السورية أصبحت مألوفة الظهور أمام الأردنيين في المطاعم ومحال الألبسة ومراكز التسوق وورش العمل، لكن وزارة العمل تعجز عن تحديد عدد هؤلاء باعتبارهم عمالة دون تصاريح وغير مسجلين وهم موزعون في مناطق عديدة.

ويقول سعيد زقزوق، وهو صاحب متجر كبير، «غادرت درعا واستأجرت مكاناً واسعاً وأنشأت فيه سوبر ماركت». ويضيف «هنا الأوضاع مستقرة ودخلي يتجاوز ألف دولار شهرياً ومعظم بضاعتي سورية وبخاصة الحلويات والسكاكر والمكسرات».

هذا التحول أثار سخط العمالة الأردنية، التي باتت تشكو من إحلال العمالة السورية مكانها «فهم يتقاضون أجوراً أقل والتزاماتهم المالية محدودة». وبينما تشير الإحصاءات الرسمية إلى أن العمالة السورية الحاصلة على تصاريح عمل حتى نهاية آب الماضي، لا تزيد على ألفي عامل، تقر الحكومة بأن هذا الرقم غير صحيح. ويؤكد مسؤول في وزارة العمل أن هذه الأرقام «لا تعكس النسب الحقيقية، وأنّ مفتشي وزارة العمل يضبطون يومياً المئات منهم في مختلف مناطق المملكة، يعملون بلا تصاريح».

موجة تدفق جديدة

تشير تقديرات خبراء في شأن اللاجئين أنه دخل إلى البلاد ما لا يقل عن 80 ألف لاجئ بطرق غير مشروعة، غير أن وزير الإعلام يؤكد أن الداخلين بطرق غير شرعية «لم يتجاوز عددهم 30 ألفاً». ويوضح أن «الأردن يتوقع دخول المزيد في حال تصاعد الحدث الأمني».

بدوره، توقع رئيس بعثة المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، أندرو هاربر، تدفق المزيد من اللاجئين مع تصاعد عمليات العنف داخل الأراضي السورية. وبحسب تصريحات المفوضية السامية للاجئين فإنه «يوجد الآن قرابة سبعين ألف لاجئ سوري سجلوا أسماؤهم لدى المفوضية، فيما لم يسجّل آلاف آخرون».

ومن المؤشرات الرئيسية على الزيادة المتوقعة، أن المفوضية صممت مخيم الزعتري ليتسع لقرابة 80 ألف لاجئ وسط توقعات بأن يمتلئ المخيم مع نهاية العام الحالي.

وأوضح بيبي أن زيادة التدفق أخيراً عبر الحدود السورية دفع المنظمة إلى التفكير في مخيمات جديدة يقدر استيعابها بأربعمائة ألف، وهو ما يدعمه تصريح رئيس الحكومة قبل أيام عندما قال «سنبحث عن مواقع جديدة لإقامة مخيمات عليها لأننا لا نعرف الحد الزمني لهذه العملية». كذلك لم يبتعد وزير الخارجية ناصر جودة عن هذا السياق، بإعلانه الثلاثاء الماضي افتتاح مخيم جديد للاجئين السوريين في الأردن خلال الأيام المقبلة، بدعم وتمويل من دولة الإمارات العربية المتحدة. وقال في حينه إن «المخيم سيفتتح في منطقة رباع السرحان (شرقي شمال الأردن) ليستوعب ما بين 15 – 20 ألف لاجئ سوري».

تمويل أردني وعربي

وجد اللاجئون السوريون مساندة شعبية ورسمية في الجانب الإنساني الاغاثي. وعملت جمعيات أردنية عديدة على دعمهم مالياً وعينياً، أبرزها جمعية المركز الإسلامي التابعة للإخوان المسلمين، جميعه الكتاب والسنّة السلفية، الجمعية المسيحية «كاريتس»، جمعية العون الطبي، مؤسسة جلدون، الهيئة الخيرية الهاشمية.

عربياً، قدمت دول الخيج مساعدات عينية كثيرة. وكانت السعودية الأبرز دوراً، فتبرعت بمئتين وخمسين «كرفان» ستصل خلال أسبوع، وبقافلتين مزودتين بالأغذية، فيما تبرعت الإمارات بمئتي «كرفان».

لكن هذه التبرعات لا تزال عاجزة عن تلبية حاجات اللاجئين. وبحسب مدير التعاون الدولي، فإن المنظمة ناشدت في آذار الماضي الدول المانحة التبرع بـ84 مليون دولار، لكنها تبرعت فقط بـ30 مليون دولار.

السوريون بين حواجز التفتيش النظامية والحرة

طالب ك إبراهيم - إذاعة هولندا العالمية

"الذين كانوا يلاحقوننا في الشوارع، ويمرغون شرفنا ببذاءات الكلمات، والذين كانوا يسرقون المحلات والبيوت، يقفون الآن على الحواجز الأمنية بصفتهم حافظي الأمن، يطلبون البطاقات الشخصية للناس، ويفتشونهم، ويمرغون شرفنا من جديد وبنفس الكلمات البذيئة، ولكن بثياب الأمن والجيش وبسلاحهم الوطني".

هكذا تبدأ "رهف" حديثها لإذاعة هولندا العالمية، مستاءة من الحالة بشكل عام ومن حالة الحواجز التي فرضها وضع أمني غير مستقر، وجعل هؤلاء العاطلين عن العمل والأخلاق متنفذين.

حواجز للعاطلين

رهف اسم مستعار لصبية تسكن في إحدى القرى "الموالية" للنظام السوري، وتعتبر رهف أن سوريا تخوض معركتها ضد الإرهاب، وهي تؤكد أن "الرئيس" بشار الأسد لا يعرف ما يفعله هؤلاء "القذرون" بلباس الجيش، والذين يفتشون ناسهم وأقرباءهم وجيرانهم عند كل دخول للقرية أو خروج منها.

وعند سؤالنا لها عما إذا كانت الحواجز كلها متشابهة؟

فتقول: لا أبداً، هناك حواجز فيها رجال أمن يعرفون عملهم، وهم يستهدفون الإرهابيين فقط، لكن في كل الأحوال عملية التفتيش تأخذ وقتاً كبيراً.

لكن لماذا توجد هذه الحواجز في المناطق التي لا وجود فيها للمعارضة، والتي توصف أحياناً بأنها "موالية" للنظام؟

تجيب رهف "لأن الإرهابيين يتواجدون في كل مكان، لقد تم اعتقال العشرات على الحواجز الأمنية، وتم تحويلهم إلى فروع الأمن في مناطق بعيدة".

اللجان الشعبية

اللجان الشعبية هي التسمية التي تطلق على العناصر الأهلية التي تتعاون مع الأمن السوري، وهي عناصر تختلف عن الشبيحة وعن رجال الأمن، وهي تقوم مقام الأمن في المناطق التي تسيطر عليها.

يوضح الناشط المعارض مهدي العمر في حديث لإذاعة هولندا العالمية "على تلك الحواجز، اعتقلت اللجان الشعبية صديقي وزوجته وكان معهما طفلهما الذي لم يتجاوز الثالثة، وفي ما بعد تم إطلاق سراح الزوجة مع طفلها ولم يظهر صديقي حتى الآن. "

لا تقتصر المعاناة على الحواجز الأمنية التابعة للنظام أو المؤيدة له. ففي الجانب المقابل يقيم "الجيش السوري الحر"، وفصائل المعارضة السورية المسلحة، حواجزهم الأمنية في المناطق التي يسيطرون عليها. يقول العمر: "لا تختلف المسألة عنها في الأحياء التي يسيطر عليها الجيش الحر كما نقل لي صديقي الذي يسكن في حلب، إذ أن عناصر الجيش الحر يتبادلون سلوك اللجان الشعبية على حواجزهم، وتهديداتهم، وقساوتهم"، ويكرر الناشط مهدي العمر أيضاً أنه "قد يبدو ذاك السلوك مفهوماً إذا كان الشخص الذي تحقق معه عناصر الجيش الحر قد قام بعمليات تعذيب أو قتل للمتظاهرين، لكنه يبدو غريباً جداً، ولا يمكن تبريره إذا كان الاتهام بحد ذاته هو انتماؤه لطائفة معينة".

على الهوية الطائفية

بعض الحواجز التي يقيمها الجيش الحر هي حواجز متنقلة، في مناطق لا يسيطرون عليها بشكل كامل، إذ يعمد الثوار إلى قطع طريق من الطرق وتوقيف السيارات والنظر في البطاقات الشخصية للراكبين، وفي هذه الحالة يكون اعتماد الثوار في اعتقالاتهم هو الهوية الطائفية للراكب، ومن خلال التحقيق معه يظهر لهم موقفه من الثورة والثوار.

يقول الناشط "مهدي العمر" على طريق حلب الرئيسي، أوقف حاجز للجيش الحر سيارة كانت تقل مجموعة من المسافرين، كان بين هؤلاء المسافرين شاب ثوري لكنه من الطائفة الإسماعيلية، استطاع الشاب إثبات موقفه عبر الكثير من الأدلة، لكن انتماءه الطائفي كان المشكلة: "كان صديقي من الطائفة الإسماعيلية، وتلقى من الإهانات ما يكفي، ترى لو كان من الطائفة العلوية، ماذا يمكن في تلك اللحظة أن يحدث؟"

الدبابات منازل مؤقتة

تنشر الناشطة والكاتبة السورية خولة دنيا مقالا لها على صفحتها في الفيس بوك، موضحة تفاصيل بعض الحواجز: "الحواجز تبدأ كبيرة على الطرق الكبيرة، وتتضاءل كلما اقتربت من الأحياء، ثمانية حواجز على الطريق الذي لا يتجاوز طوله 30 كيلو متراً بينها حاجزان كبيران".

وتضيف الناشطة: "في شارع ضمن حي من الأحياء يقف رجل بعتاده الكامل أمام منزله، ويشير للناس أن يتوقفوا باعتباره "حاجز"، ويمارس بقوة سلاحه، سلطة كسبها صدفة، ومن كثرة الجرائم التي تحصل ومن شدة خوف الناس من المجهولين وممن يعرفون، يقفون أما قساوة الرجل المحمي من رجال الأمن وينفذون أوامره. "

وتقول الكاتبة "الحواجز الأمنية في الشوارع الكبيرة والتي تخضع لسلطة النظام محمية بالدبابات، وبسبب مبيت عناصر الجيش في تلك الدبابات لفترة طويلة في دباباتهم، فإنهم يحولون تلك الدبابات إلى أشباه منازل لهم، فرش للنوم، مناشر غسيل، وأشياء أخرى".

سوريا الآن بين ضفتين من الحواجز، حواجز للأمن السوري ولكتائب الجيش الذي خرج من ثكناته، وحواجز متنقلة للجيش الحر، وبين الضفتين أيضاً حواجز متناوبة، تجري فيها مشاعر الشعب السوري.

ياسين الحاج صالح يفوز بجائزة الأمير كلاوس

كتب عبده وازن في الحياة:

فاز الكاتب والمناضل السياسي السوري ياسين الحاج صالح بجائزة الأمير كلاوس، إحدى أهم الجوائز الأوروبية التي تكافئ المفكرين والكتّاب في البلدان التي تعاني «نقصاً في فرص الحرية» وفق نظامها. وفي مخبئه السرّي، في المنفى المفروض عليه داخلياً، هرباً من قمع السلطة وخوفاً من التعرّض للخطف أو السجن والقتل، تلقّى الكاتب المعارض خبرَ هذا الفوز بالجائزة الهولندية التي مُنحت سابقاً للشاعر محمود درويش وأسماء ومنظمات أخرى، عربية وعالمية. جاءت هذه الجائزة لترفع كثيراً من الغبن الذي حلّ بهذا الكاتب والمفكر، بعدما عانى طويلاً داخل السجون السورية، واضطهد ولوحق وعُذّب، مثله مثل سجناء الرأي، وما أكثرَهم في ظل نظام حزب البعث.

وأصابت «براءة» الجائزة عندما وصفت صالح بـ «الصوت الذي يمثل التحليل الحكيم والهادئ للثورة السورية، والذي يقدّم استبصارات واسعة في شتى المجالات، السياسية والاجتماعية والثقافية، سورياً وعربياً».

فهذا الكاتب الذي سُجن نحو 16 عاماً في أقسى الزنزانات السورية، عرف كيف يحافظ على وعيه السياسي، الذي راح يعمّقه طوال تلك الأعوام الحالكة، مكبّاً على القراءة بنهم شديد. تمكّنَ صالح في سجنه من مواجهة بطش النظام البعثي، وعوض أن يستسلم لآلته الجهنمية، راح يقاومه فكراً وثقافة، قارئاً كل ما أتيح له من كتب في السجن. جعل صالح من تجربة الأسر القاسية تجربة ثقافية، وعندما خرج اكتشف أن الشاب الذي دخل السجن في العشرين من عمره العام 1980، أصبح شخصاً ناضجاً بعدما بلغ السادسة والثلاثين.

كان طالباً في كلّية الطب عندما قبض عليه جهاز الاستخبارات بتهمة الانتماء إلى الحزب الشيوعي، لكنّه وجد نفسه يخرج من السجن حاصلاً على شهادة شخصية في الفكر السياسي.

لم تكرّم جائزة كلاوس هذه السنة ياسين الحاج صالح وحده، بل كرّمت جميع سجناء الرأي في سورية، الذين ماتوا داخل السجن تحت وطأة التعذيب، والذين ماتوا خارجه بعدما أمضوا فيه ردحاً من شيخوختهم، وكذلك الذين ما زالوا داخل السجون، منتظرين لحظة الحرية التي تعدهم بها الثورة.

ياسين الحاج صالح، كاتب ومفكر ذو منهج فريد في التحليل السياسي والاجتماعي، تناول أبرز القضايا التي تشهدها الساحة السورية والعربية في فترة ما قبل الثورة وخلالها، وتعمّق في قراءة الكيان والهوية، وفي نقد النظام السياسي الأمني، الذي وصفه بـ «النظام الذي يسير على قدم واحدة»، كما يشي عنوان أحد كتبه، وتطرّق إلى واقع الاقتصاد والمجتمع، والأيديولوجيا «الرسمية» والثقافة والحياة اليومية.

ولعلّ مقالاته، التي ما برح يكتبها في مخبئه السرّي، تمثّل فسحة للتأمل والتحليل والقراءة الهادئة لأبعاد الثورة ووقائعها. ولعلّ هذه المقالات، التي يطل بها عبر الانترنت سلاحاً وحيداً في عزلته، بات ينتظرها كثيرون من القراء، تبعاً لما تتميز به من عمق وجرأة. وفي ملجئه السرّي، وصف صالح فوزه بالجائزة في تصريح عبر الانترنت إلى وكالة «فرانس برس» قائلاً: «أظن أنها تكريم للشعب السوري والثورة السورية، وبهذه الصفة هي جائزة عظيمة، ويسعدني أن فيها ما يهين النظام القاتل».

ومن الفائزين في هذه الدورة بالجائزة في أقسامها الأخرى: سامي بن غربية الناشط التونسي على الانترنت، والمخرجة الجزائرية حبيبة جيهاني، والأردنية وداد كوار العاملة في حقل الآثار والتراث... وأسماء أخرى من الأرجنتين والمكسيك وكينيا وكمبوديا والصومال.

آثار سوريا: تاريخنا.. تحت رحمة النيران

■ ياسر مرزوق

عن العلامة السوري "شاكر مصطفى" ومن كتابه "التاريخ الشامي" أنقل: "هل جرب أحدكم أن يستمع إلى وسوسة الأحجار القديمة في هذا البلد، شيءٌ يشبه الشعر يتصاعد منها... جوعٌ موسيقي يلوب على الجدران، إنها إن شئت طفلة بعيون من ذهب، وإن شئت مجنونة تمزق البنفسج وزرقة السماء، وإن شئت عجوزٌ تهدر بالحكمة والثرثرة معاً... وبشيء من المرارة.. غير قليل"..

هي حجارة سوريتنا، وقد يبدو الحديث عن الحجر والأثر ترفاً، بينما تسيل الدماء أنهاراً، لكن عندما يتعلق الأمر بتاريخنا وذاكرتنا، ذاكرة العالم، لا يغدو ملفنا اليوم من قبيل الترف بل هو واجبٌ على السوريين رغم الجراح، وواجبٌ على الإنسانية جمعاء رغم الخذلان، كيف لا وسورية التي تباهي الأمم بحضارتها قائلة: "أنا ابنة الجغرافيا، ولكنني سيدة التاريخ" تقصف بالطيران الحربي من أقصاها إلى أقصاها، وكما قلنا سابقاً فالقذائف لا تفرق بين موال ومعارض، ولا بين كنز أو خربة إنها ديمقراطية الدمار يختبرها السوريون كل يوم...

وكلما ضعفت سيطرة النظام على الأرض، حتى بات يصح فيه قول الشاعر:

ويخاف فقد إمارةٍ يجتازها
الهرم الكسيح في ليلةٍ ونهار

كلما التهبت نيرانه من السماء لتحرق تاريخنا وذاكرتنا وتراثنا حريقٌ يمكن إخماده، ويستحيل جبر ضرره، ذكر "باتريك سيل" في كتابه "الأسد الصراع على الشرق الأوسط" أن نسبة 80٪ من مدينة حلب العثمانية وحلب العصور الوسطى ظلت صامدة، بينما لم يبقَ من دمشق القديمة إلا 20٪.

كما يصف في الصفحة "538" من الكتاب نفسه سلوك النظام أثناء اقتحام مدينة حماه عام 1982، فبعد قصفٍ عنيف بدأت منازل عائلة الكيلاني القديمة الفخمة على ضفاف العاصي تتحطم بنيران القصف، وبعد اقتحام الجيش لحقت أعمال العنف والنهب بعشرات المساجد والكنائس والأماكن التذكارية والأثرية العريقة، بما فيها "قصر العظم" الشهير الذي يعود تاريخه إلى القرن الثامن عشر، وخلال شهر من القتال تقريباً دمر ثلث المدينة الداخلية التاريخية.

نخصص ملفنا اليوم لنسرد الجراح التي أصابت تاريخنا، جراحٌ لن تندمل بأفضل الحالات ستبقى ندوباً، ندوب في وجه البشرية التي تعثرت، ولم تفلح في الحفاظ على البشر أو الحجر، وبهذا الصدد فقد نشرت منظمة "غلوبال هيرتش فاند" قبل أيام أول تقرير عن وضع الآثار في سورية، أكدت فيه تعرّض 3 مواقع مدرجة على لائحة التراث العالمي في شمال البلاد إلى التدمير، كما دُمّرت معالم مدينة حماه الأثرية وأحياؤها القديمة.

مع بدايات الثورة قامت رئاسة مجلس الوزراء في سورية بتوجيه كتاب إلى الوزارات والمديريات التابعة لها والمتضمن وحسب زعم السلطة الحاكمة بأن ثمة عصابات سوف تقوم بالدخول إلى البلد وتسرق الآثار والمتاحف والمخطوطات. الكتاب مؤرخ في السابع من شهر حزيران للعام 2011م. علماً أن المخطوطات السورية القديمة ذات القيمة التاريخية الكبيرة والنادرة موجودة في مركز الوثائق التاريخية بدمشق، وفي مكتبة "الأسد"، وفي مكتبة الجامع الأموي الكبير بدمشق وبعض المكتبات الوطنية في مدينة حلب. هذا الكتاب بشكل وثيقة خطيرة من قبل الحكومة، فهي تستبق الأحداث لتبرير ما ستقوم بفعله، ففي ما مضى لم يكونوا بحاجة لوثيقة كهذه لتبرير أفعالهم وتمريرها، فالآثار كانت تُسرق على مرأى السلطات المعنية من قبل رجال النظام، وخاصة رفعت الأسد، وكانت تُهرب الى خارج البلد في وضح النهار عن طريق مرفأه الخاص في مدينة اللاذقية، أما اليوم ومع تكاثر العصابات المسلحة المزعومة، والتي لا يتورع النظام على أن يلصق بها كل جرائم البشرية، باتت المواقع الأثرية مرتعاً للسرقة والتخريب.

القلاع الأثرية

القلاع الأثرية وعلى رأسها "قلعة المضيق" التي تم تدمير أجزاء كبيرة منها من خلال عمليات القصف المباشر، والذي ركز على أبراج المراقبة في القلعة، كما أحدث القصف فتحات في الجدران، وقال نشطاء محليون إن قوات النظام نفذت الهجوم، ثم نقلت الدبابات إلى القلعة على قمة التل. وأظهرت المشاهد التي تناقلتها مواقع التواصل الالكتروني لاحقاً جرافات تحفر جزءاً من الجدران لإنشاء مدخل. و"قلعة الكرك" والتي تعود أصولها إلى العام 1106، قصفت أيضاً من قبل الجيش السوري وكما دُطم المصلى الصليبي القائم في داخلها. و"قلعة الحصن"، إحدى أفضل القلاع الصليبية المحافظ عليها في العالم، والتي كانت إحدى نفائس السياحة في سورية، لم تسلم أيضاً من القصف والحصار، كما احتلت القوات السورية قلعة "ابن معان" فوق مدينة "تدمر" حيث تمركزت الدبابات والآليات العسكرية في وادي القبور غربي المدينة القديمة. ونقلت مصادر أن الجيش النظامي قام بحفر خندق بين الآثار الرومانية هناك.

من جهة أخرى تم تحويل العديد من القلاع الأثرية إلى مناطق عسكرية، ومتاريس للقناصة والدبابات وتم تشويه العديد من خصائصها المعمارية بسبب دخول المجنزرات العسكرية إلى قلبها كقلعة المرقب، وقلعة حمص، وقلعة حماة، وسواها.

المدن المنسية

المدن الميتة "أو المنسية مثل البارة، سرجيلا، دير سنبل، وعين لاروس" في شمال سورية في محافظة إدلب والمسجلة على لائحة التراث العالمي - اليونسكو في العام2011 تعرضت لأشكال مختلفة من التدمير يكاد أخطرها القصف المباشر على القبور والمغاور، كما اشتبك المنشقون مع كتائب الجيش النظامي داخل آثار إيبلا وحولها، وهي مدينة من العصر البرونزي، حيث اكتشف علماء الآثار في الستينيات كنزاً هائلاً من الرقم المسمارية التي أحدثت ثورة في فهمهم للشرق الأوسط القديم، كما قامت قوات الجيش النظامي السوري بجملة تمشيط بالذخيرة الحية للمغاور الأثرية في مدينة "كفر نُبُل" القريبة من بلدة معرة النعمان في محافظة إدلب.

مدينة تدمر

مدينة تدمر الأثرية، والمسجلة على لائحة التراث العالمي - اليونسكو في العام 1980. وهي المدينة الضاربة في التاريخ والتي تعد من أكبر المعالم السياحية بأروقتها الرومانية الشاهقة ومعبد الإله بعل الموجود فيها. طوقتها القوات الحكومية مع بلدة مجاورة وأقامت قاعدة عسكرية في قلعة تاريخية على قمة تل يطل على الموقع في عمق الصحراء المركزية السورية. إضافة إلى تمركز الدبابات وناقلات الجند في قلب المدينة الأثرية، وبخاصة في منطقة المقابر البرجية وحول أسوار المدينة.

التلال الأثرية

التلال الأثرية، وعلى رأسها: تل خان شيخون، تل قرقور، تل آفس، تل الشيخ حمد، تل الأشعري، وتل حمو كار، تم الحفر العميق في بعض التلال الأثرية، وذلك لصنع ملاجئ للدبابات والمجنزرات العسكرية، ورُصدت هذه الحفريات في تل قرقور الأثري وتل خان شيخون في محافظة حماة، كما تمركزت الدبابات والمجنزرات العسكرية في حرم تل آفس الأثري التابع لمحافظة إدلب، أما في المحافظات الشرقية، فلم تكن التلال الأثرية أحسن حالاً ونذكر منها: الحسكة: تل حمو كار، والكثير من التلال المتاخمة للحدود السورية العراقية؛ دير الزور: تل العشارة، تل الشيخ حمد، حلبية وزلبيا، والعديد من المواقع الأثرية على ضفاف الفرات العائدة للفترات الكلاسيكية؛ الرقة: موقع سورا الأثري، موقع الرصافة، الشيخ حسن، وغيرها.

الأحياء القديمة في مدينتي حمص وحماة

حيث تعرض قسم كبير من البيوت والأسواق والجوامع والكنائس التاريخية

كنيسة أم الزنار في حمص

للقصف المباشر من قبل قوات الجيش السوري النظامي. ففي حمص قصفت المئذنة التاريخية لجامع كعب الأحبار، في حي باب دريب، وقصف أيضاً الجامع التاريخي ورمز مدينة حمص جامع خالد بن الوليد، بالإضافة جامع النخلة وجامع مصطفى الحسيني ومسجد قاسم الأتاسي ومسجد كامل باشا وجامع القصير كما تم قصف الجامع الكبير في قلعة الحصن السرايا، وقصف دير القديس إليان الحمصي في مدينة القصير. كما تم تخريب كاتدرائية السيدة العذراء "كنيسة أم الزنار" في قلب مدينة حمص، والتي يعود تاريخ بنائها الأول للفترة البيزنطية المبكرة حيث بنيت تحت الأرض في عام 59 ميلادي. كما جرى قصف مباشر للسوق المسقوف القديم، أما في "حماه" فكان القصف مباشراً على حي الأربعين في حماة وبقايا المدينة التاريخية.

مدينة أفاميا

يتعرض محيط مدينة أفاميا الأثرية لعمليات حفر سري أسفر عن سرقة لوحة فسيفساء نادرة وبعض التيجان في ساحة الأعمدة في قلب المدينة الأثرية. وهذه المنطقة الأثرية التي تتعرض لعمليات نهب منظم مسجلة على لائحة التراث العالمي في العام 1999 - اليونسكو.

المتاحف

تصف "جوان فارتشاك" الخبيرة في الآثار اللبنانية وضع الآثار في سورية بـ"الكارثي". وكانت فارتشاك قد قامت بالتحقيق في عمليات تدمير وسرقة الآثار العراقية بعد عام 2003، وساعدت متحف بغداد في الإبلاغ عن بعض القطع الأثرية المفقودة. وتضيف فارتشاك "إحدى المشاكل أنه لمدة عشر سنوات قبل الحرب أسس النظام السوري خمسة وعشرين متحفاً أثرياً في مختلف أنحاء البلاد لتشجيع السياحة ولضمان سلامة القطع الأثرية، والكثير من هذه القطع كان في الحدائق الخارجية للمتاحف بهدف إثبات مدى قدرة النظام على حماية هذه الآثار النادرة حتى وإن كانت غير محاطة بجدران، والآن متحف حمص قد سُرق ولا نعرف قد يكون سُرق من جانب كلا الطرفين الثوار والجيش النظامي. وتجار القطع الأثرية يقولون لي أن أسواق الأردن وتركيا ممتلئة بالقطع الأثرية من سورية".

وقبل أشهر قليلة أعلنت السلطات السورية عن سرقة التمثال الذهبي الذي يعود إلى العام الثامن قبل الميلاد ويمثل الإله الآرامي، وحتى الآن لم يستطيعوا استرجاعه بالرغم من أنهم أبلغوا عنه في الانتربول، كما تم التبليغ عن سرقات لقطع أثرية من دير الزور والرقة ومعرة النعمان وقلعة جابر.

كما يعاني تراث سوريا وآثارها المحفوظة في المتاحف من خطر النهب المنظم وذلك بسبب ضعف الرقابة التي أدت إلى سرقة عدد من القطع الأثرية من داخل المتاحف الأثرية في وضح النهار، إضافة إلى عمليات الحفر السري في المواقع والتلال الأثرية وتهريب كنوز سوريا التاريخية. كما تعاني المقتنيات الأثرية في المتاحف السورية غياب عمليات الجرد والتوثيق المُتحفي لكافة القطع، وبالتالي فإنه سيكون من المستحيل تتبع أثر هذه المقتنيات في حال تعرضت للسرقة.

مدينة حلب

لا تزال المعارك في حلب على أشدها، والقصف يحصد الأرواح والكنوز الثقافية، مع تعذر إحصاءها وقد أدرجت مدينة حلب القديمة في قائمة التراث العالمي عام 1986. وترجع أسباب دمار بعض المباني الأثرية في حلب إلى اختباء أفراد من الجيش السوري الحر خلف الجدران السميكة للمباني الأثرية ومن جانبها لم تتردد القوات السورية في ضرب المباني التاريخية حيث تنتشر المئات من بقايا المدن الرومانية.

مدينة درعا

المدينة الصغيرة الموجودة داخل بقايا الحضارة الرومانية "بصرى"، لم يشفع لها احتواؤها على أفضل مسرح روماني في العالم لتبقى منطقته بعيدة عن التدمير.. كذلك جامع الأم أياد في درة هو واحد من أقدم المساجد الإسلامية في سورية، والذي بناه الخليفة عمر بن الخطاب قد أصابه الدمار أيضاً. كما استهدفت الحكومة المسجد العمري في درعا، الذي بني أثناء الفتح الإسلامي لسورية في أيام الخليفة عمر بن الخطاب. ويقول نشطاء إن القوات الحكومية خربت المسجد عمداً وأخفت أسلحة في داخله لإثبات أن العصابات المسلحة كانت مختبئة هناك.

إضافةً لتل الأشعري وتل أم حوران في نوى، وترحيل حجارة من مواقع أثرية في قرية المتاعية، وهدم مبان أثرية في كل من طفس وداعل وفي البلدة القديمة في سحم الجولان وغيرها الكثير.

مدينة القنيطرة

تعرضت المواقع الأثرية في محافظة القنيطرة، إلى تدمير وطمس واسع وذلك من خلال تمرير مشاريع بناء وغيرها من قبل بعض العاملين في الآثار والبلدية في المحافظة، وذلك بهدف الكسب غير المشروع، الخطر الكامن هنا يتمثل في نقل بعض الحجارة الأثرية لإعادة استخدامها في عمليات البناء، وبخاصة تلك المناطق التي تكون غالبية آثارها من الحجارة المشغولة والمصقولة.

دمشق وريفها

من المتعذر الآن ضبط الخروقات والجرائم المرتكبة بحق التراث الإنساني الموزع، في متاحف دمشق، والمدينة القديمة لازالت بعيدة عن النيران حتى كتابة ملفنا هذا، أما محافظة ريف دمشق، فهي محافظة شديدة التنوع، تتوزع مدنها وبلداتها بين آرامية، ورومانية، وإسلامية، ويرجع تاريخ بعضها إلى عهود الإنسان الأول، ونتيجة للإهمال والتوسع العمراني غير المدروس، تعرضت نسبة كبيرة من آثارها للطمس، أما ما بقي منها وبالذات في الريف الدمشقي الأقرب للمدينة، فهو الآن تحت وطأة القصف بالأسلحة الثقيلة.

ولا بد من الإشارة إلى قيام بعض المسلحين باقتحام دير مار موسى الحبشي، بحثاً عن الأب "باولو" المسؤول عن الدير ومن المعلوم أن دير مار موسى الحبشي، يعود تاريخ بنائه وبحسب وثيقة سريانية إلى العام 575 ميلادي، حيث تذكر الوثيقة بأن الدير تم إنشاؤه على أنقاض حصن روماني، تم تحويله لاحقاً لكنيسة، أما آثار الدير الحالية فيعود تاريخها إلى القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، كما اخترقت قذيفة جدار دير سيدة صيدنايا، ونعلم بأن أساسات هذا الدير يعود تاريخ بنائها إلى فترة جوستينيان، الفترة البيزنطية المبكرة أي حوالي العام 547 بعد الميلاد.

على أية حال، لسنا هنا بصدد تحميل طرف كامل المسؤولية عما يحدث لتراثنا، وتبرئة الطرف الآخر، لكن الدولة مسؤولة مسؤولية تقصيرية على حماية كل أثر في سوريا مهما قل شأنه، ولا يجوز لها التذرع بالظرف الأمني وغيره من الأعذار، إذ يفترض أننا دولة مواجهة، يجب أن تتوافر لديها كل الخطط لحماية إرثنا الحضاري، كما أن الجيش السوري هو الذي يمتلك الدبابات والطائرات، أما خصمه فلا يملك ما يهدم قلعة أو قصراً أو كنيسة قديمة، وفي هذا الصدد، يقول "رودريجو مارتن" وهو عالم آثار إسباني قاد بعثات بحوث في الماضي في سوريا: "لدينا حقائق تبين أن الحكومة تعمل مباشرة ضد التراث التاريخي للبلاد". ويضيف "إن كل حادثة تدمير تعد كحرق صفحة في كتاب تاريخ البشرية".

الجهود الدولية المبذولة لحماية الآثار

لعل الجهود الدولية لحماية الحجر في سورية، توازي الجهود الدولية في حماية البشر، والتي لا تتعدى الدعم المعنوي واللفظي، كما أن ما يحدث اليوم في سورية، رسالة واضحة لكل دول العالم، بعدم جدوى الجهود المبذولة لإضافة هذا الموقع أو ذاك للائحة التراث العالمي، هذه اللائحة التي لا تضفي على الموقع أي شكل من أشكال الحصانة.

وعلى صعيد الجهود اللفظية المبذولة، وجهت المديرة العامة لليونسكو "أرينا بوكوفا" نداءً جديداً لحماية مدينة حلب القديمة المدرجة في قائمة التراث العالمي، بعد تصاعد وتيرة أعمال العنف قرب المناطق الحضرية التاريخية في الجمهورية العربية السورية، وطالبت المديرة العامة لليونسكو جميع أطراف النزاع لحماية مواقع التراث الثقافي السوري بأشكالها المختلفة.

وقالت مديرة اليونسكو في بيان: "تشعر اليونسكو بقلق بالغ إزاء التقارير التي تفيد بوقوع مواجهات عنيفة في حلب، التي تمثل مدينتها القديمة أحد المواقع المدرجة في قائمة التراث العالمي. وحافظت هذه المدينة القديمة – التي احتلت موقعاً استراتيجياً على تقاطع طرق التجارة التاريخية بين الشرق والغرب – على تراث تاريخي استثنائي يبرز الثقافات المتنوعة للشعوب التي استقرت فيها على مدى الآلاف من السنين، ومنها الحثيون والآشوريون والإغريق والرومان والأمويون والأيوبيون والمغول والمماليك والعثمانيون.

وقد قامت اليونسكو في إطار الجهود التي تبذلها لتعبئة المجتمع الدولي من أجل حماية التراث الثقافي السوري بتنبيه المنظمة العالمية للجمارك والمنظمة الدولية للشرطة الجنائية "الإنتربول" والبلدان المجاورة للجمهورية العربية السورية إلى خطر الاتجار غير المشروع بالممتلكات الثقافية السورية.

واتصلت المديرة العامة أيضاً بالأمين العام للأمم المتحدة ورئيس مجلس الأمن للفت انتباه المبعوث الخاص للأمم المتحدة وجامعة الدول العربية كوفي عنان إلى أهمية ضمان الالتزام بأحكام الاتفاقيات الدولية المتعلقة بحماية الممتلكات الثقافية، وبخاصة اتفاقية لاهاي لعام 1954 بشأن حماية الممتلكات الثقافية في حالة نزاع مسلح واتفاقية عام 1970 بشأن التدابير الواجب اتخاذها لحظر ومنع استيراد وتصدير ونقل ملكية الممتلكات الثقافية بطرق غير مشروعة.

وتجري اليونسكو اتصالات وثيقة مع المنسق المقيم للأمم المتحدة في دمشق بشأن الأوضاع الراهنة، كما دعت المديرة العامة جميع الأطراف إلى احترام وحماية التراث الثقافي العظيم للجمهورية العربية السورية، الذي يكسب الشعب السوري هويته وقدرته على الازدهار، وإلى الوفاء بما يقع على عاتقها من التزامات دولية في مجال الثقافة.

في الختام، نزل التراث والتاريخ بنداً في الفاتورة التي يدفعها الشعب السوري لنيل خلاصه، وبنداً في لائحة الاتهام للجاني..

الشـــعب الخـــلاق

■ خالد كنفاني

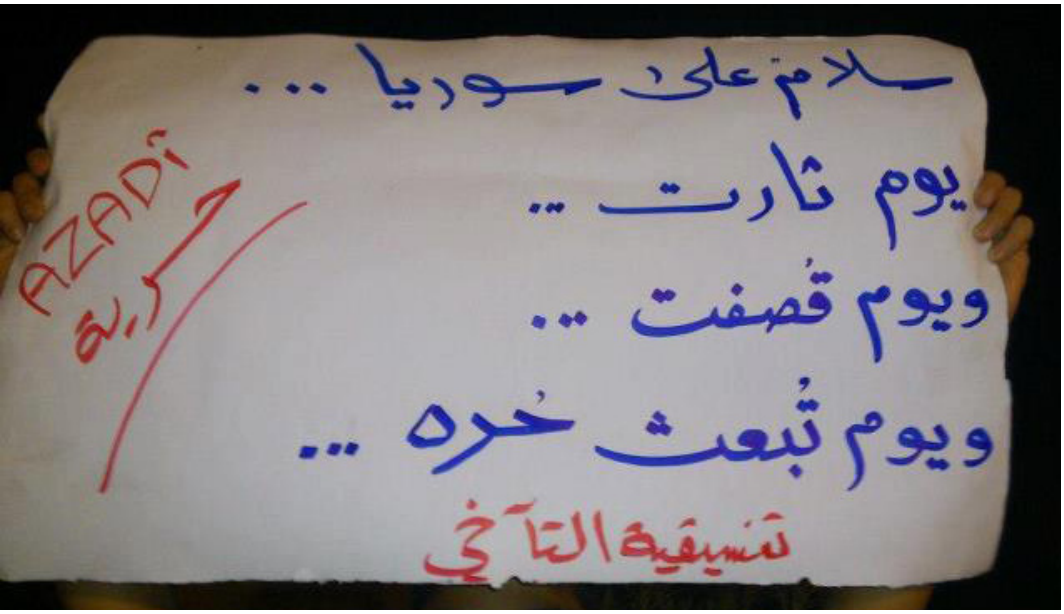

عرضت إحدى القنوات الفضائية برنامجاً خاصاً منذ فترة عن التحضيرات التي جرت لإعداد مسلسل تاريخي ضخم هو "عمر بن الخطاب" والذي تم عرضه مؤخراً في رمضان. وقد كانت المفاجأة الكبرى أن 90 بالمائة من التحضيرات سواء منها المكانية أو اللوجستية (من ملابس وأدوات قتالية ومبان وغيرها) تم في سوريا وبأيدي عمال سوريين. حتى أن البرنامج يعرض أن عمليات بناء البيوت والكعبة وغيرها والتي تمت في منطقة قريبة من مراكش بالمغرب قد تم معظمها بأيدي سورية.

نسوق هذه المقدمة ونحن نشعر بالأسى لما تعرض ويتعرض له هذا الشعب العظيم. كنت أنظر إلى عيون وقسمات الشبان والشابات الذين كانوا يعملون ليل نهار في تلك الأعمال وهم يبذلون قصارى جهدهم بكل إتقان لتحقيق البرنامج الزمني الشديد الذي وضعه مخرج العمل. لم يكن يدور في خلد هؤلاء أن ثورة ما ستقوم في هذا البلد، فالكثيرون منهم كان يرسم لنفسه مستقبلاً وخططاً للحياة كانت بعيدة كل البعد عن السياسة ومتغيراتها، كانوا منهمكين في أعمالهم يريد الواحد منهم أن يثبت لنفسه وللآخرين مقدرته اللامحدودة على العطاء والعمل المتواصل.

وعلى ما يبدو فإن قدر هذا البلد أن يتعرض للنكبة تلو الأخرى وها هو نظام ديكتاتوري طائش مجنون يعبث بكل هذا الإبداع العظيم ليقضي على كل آمال الحياة والتقدم والتطور. ورغم أنه جاء حاملاً شعارات التطوير والتحديث إلا أن النتيجة النهائية كانت دماراً وقتلاً وتشريداً لما بلغ الآن ملايين الناس ولم يعد مقتصراً على الآلاف. لم يبذل أدنى جهد "ليفهمهم"، كان كالفيل يلوح بخرطومه يمنة ويسرة دون اعتبار لأي شيء. لم يكن أهل درعا راغبين في جلب الموت والدمار لمدينتهم ولكن السكوت على المهانة عقوداً لم يعد يجدي ولذلك رضوا "بالموت ولا المذلة". كان الفيل الهائج يحطم كل شيء بينما الناس والأشياء تتطاير هنا وهناك وكأنه إعصار لا يهدأ.

أثبت لنا هذا النظام بما لا يدع مجالاً للشك أنه بعيد كل البعد عن السياسة بعده عن الإنسانية. لا يخفى على أحد أن كل ما حدث في درعا كان من الممكن استيعابه بالقليل جداً من السياسة، ولكن الفيل الهائج الذي اعتاد أن لا يحس بلدغات الحشرات من حوله ولا أن يرى ما هو أبعد من خرطومه اختار أن يدوس على كل شيء. كان بإمكانه التضحية بشخصين أو ثلاثة من المقربين لديه لتهدئة النفوس ولكسب ملايين الأشخاص في مقابل خسارة اثنين أو ثلاثة، ولكنه اختار العكس تماماً، خسر الملايين من أجل هؤلاء الاثنين أو الثلاثة، وقلب كل الحقائق ليجعل في الأمر مؤامرات خارجية ودسائس من الأعداء الذين كانوا حتى وقت قريب جداً أقرب الأصدقاء.

أحاط نفسه منذ البدايات بمجموعة من المستشارين الدمويين والقتلة والذين لا يستطيبون سوى طعم الدم ولا يطربون إلا لصوت الرصاص. وهذا ليس تبرئة له أو لغيره ولا تبريراً لكل ما جرى أو يجري، لأنه ما من تبرير لكل هذه الجرائم المتسلسلة مهما كانت المقدمات أو الدوافع. ولكنه نظام الاستبداد بأكمله وهو مؤسسة كاملة قائمة على القتل والكراهية ووسائلها أسلحة كان يفترض بها حماية الوطن. ولكننا وجدنا أن الوطن يحميه من اعتقدنا أنهم أعداؤه بينما كانت أسلحة الجيش جاهزة لحماية النظام.

نكاد نجزم أن غالبية السوريين لم تكن معنية بالسياسة قدر اعتنائها بنتائج هذه السياسة. ولهذا كان تقييم السوريين لأية حكومة في بلدهم قائماً على مقدار ما تحققه هذه الحكومة من مصالح الناس، وهي طبيعة العقد الاجتماعي القائم بين أية حكومة وشعبها. أما مسائل الأحزاب والانتخابات والحملات والاعتصامات فقد كانت ضمن مجال اهتمام أقل من عشرة في المائة من الشعب السوري، وهذا ليس تعييراً ولا انتقاصاً، إنه حقيقة واقعة لا تعيب السوريين. وهذا الأمر ينطبق بالمناسبة على كل شعوب العالم التي لا تهتم بالسياسة قدر اهتمامها بما ستحققه هذه السياسة في أمور معاشهم وحياتهم. ولهذا نجد في كثير من الحملات الانتخابية للرؤساء في دول الغرب تركيزاً على قضايا البطالة والتأمينات الاجتماعية والصحية والأنماط الاقتصادية في الدولة أكثر من التركيز على قضايا السياسة الخارجية أو الدفاع الوطني أو غيرها.

لم يستطع النظام أن يفهم ولم يرد أن يفهم ما يحدث لأن أحداً من رموزه لم يقرأ التاريخ ولا حركة التاريخ. كان يكرر نفس خطأ سابقيه، أن الموجة العالية ستتجاوزه وتقضي على الآخرين، وأنه باق بينما يرحل غيره. لم يقرأ حركة التاريخ ولا حركة السياسة اللتين كانتا تبشران بعهود جديدة ومعادلات إقليمية ودولية جديدة. لم يشأ أن يفهم كيف أطاح الشعب المصري بنظام مبارك وتخلت عنه الولايات المتحدة رغم أنه بقي للحظة الأخيرة يكرر نفس المقولات التي اعتادها طوال ثلاثين عاماً وهي التخويف من المتطرفين والإسلاميين والسلفيين وغيرهم. لم يستطع النظام في سوريا أن يقرأ هذه الإشارات فوجدناه يكرر نفس المقولات بحذافيرها حتى في خضم الانتخابات التي كانت تأتي بالحركات الإسلامية إلى الحكم في مصر وتونس والمغرب وغيرها. وحيث أنه لم يرد قراءة التاريخ بل وقرر إحراق كل علوم الدنيا فإنه بذلك فتح بوابته الخاصة خارج التاريخ وخارج الجغرافيا.

يقول أفلاطون: " أن الطاغية الحقيقي هو في واقع الأمر عبد بلغ أقصى درجات العبودية ما دامت دوافعه الحيوانية هي التي تسيطر عليه وتدفعه إلى تملق الناس. وهو يقضي حياته في خوف مستمر ويعاني على الدوام آلاماً مرهقة، ويبدو أكثر الناس بؤساً، كما أن السلطة تنمي كل مساوئه وتجعله أشد حسداً وغدراً وظلماً، وأقل أصدقاء وأشد فجوراً وأمعن في احتضان كل الرذائل. " وهذا غالباً ما نلاحظه على وجوه المستبدين من الحكام والذين وإن أظهروا بعض رباطة الجأش أمام الشاشات إلا أن المتعمق في ملامحهم يرى رعباً وخوفاً لأنهم يعلمون أنهم بنوا علاقتهم بالآخرين على مبدأ السيد والعبيد لا على مبدأ الشراكة. إنه يعلم حق المعرفة أن من حوله لا يطيقونه إلا رعباً ولا يحمونه إلا خوفاً منه لا خوفاً عليه.

إن كل الشعوب العربية اليوم تقوم بنقض كافة النظريات الاقتصادية والاجتماعية التي بناها مفكرو وفلاسفة العالم على مدى قرون طويلة، وأهم تلك النظريات هي القابلية للعبودية وأن الشعوب الشرقية تمتهن العبودية، حتى أن أرسطو وجّه نصيحة إلى تلميذه الاسكندر الأكبر بأن يعامل اليونانيين كقائد وأن يعامل الشرقيين كسيّد. كما أن كارل ماركس بنى نظريته الشيوعية على ما رآه وقرأه عن شعوب الشرق ونمط الإنتاج الزراعي القائم على الاستعباد والخنوع الشرقيين. إن الشعوب العربية اليوم تقول للأوروبيين أن كل نظريات الاستعلاء التي درّسوها في جامعاتهم ومدارسهم لقرون سيتم بناؤها من جديد على أسس مختلفة يتم تشكيلها وصياغتها على أيدي الشعوب نفسها. ويكفيهم أن ثوراتهم وللمرة الأولى في التاريخ كانت بلا قائد ولا رمز حيث انطلق الآلاف والملايين بصوت واحد وقلب واحد لا يمثلهم أحد ولا يدعي قيادتهم أحد.

عندما قرر النظام قتل كل شيء في سوريا نسي أن البشر يموتون ولكن أرواحهم خالدة. وما يبث الدم في عروق أبنائهم ليس آباؤهم وحسب وإنما أكثر من عشرة آلاف سنة من الحضارة والتاريخ اللذين طبعا هذا الشعب بطابعهما الخاص. ونحن اليوم ورغم كل الظواهر السلبية المجتمعية لدى السوريين فإننا نقول بأن كياناً جديداً يتشكل اليوم ووليداً جديداً على وشك القدوم إلى الدنيا ولكن مخاضه عسير جداً وإذا سلمنا لمرة واحدة بأن الثواب على قدر المشقة فمن حقنا أن نحلم بوليدنا الجديد وأن نبدأ بتحضير ثيابه وحاجياته وهداياه وغرفته وكل ما يلزمه لأن سيكون أول وليد في أسرة عربية يعيش هذا المخاض العسير ولا يأتي إلا بعملية قيصرية.

لن نعيد الكلام عن المؤامرة الحقيقية التي يتم بموجبها تدمير الشعب في سوريا وتدمير مقدراته العسكرية والمدنية على حد سواء، فنحن لا نريد التأسيس لشيزوفرينيا سورية قد لا يكون لها وجود أصلاً، ولكن الإبقاء على الحبل السري ممدوداً إلى كل من النظام والمعارضة على حد سواء يطيل أمد المأساة ويزهق أرواح الآلاف بينما يضيع مئات الآلاف في المعتقلات. يغضب وزير الخارجية الألماني من عجز مجلس الأمن عن حل الأزمة في سوريا بينما يهاجم بان كي مون الأمم المتحدة لعجزها أيضاً (وهو أمينها العام!) ويدرس الرئيس الفرنسي تزويد المعارضة السورية ببضعة مدافع ثقيلة بينما يعيش السلطان أردوغان الأول حلمه العثماني الخاص ويبشر المؤمنين بقرب صلاته في الجامع الأموي على رأس الفاتحين، رغم أنه لم يحسم أمره بعد بالنسبة للمناطق العازلة أو الأمنة أو أياً كانت تسميتها.

إن الشعب السوري فجّر كل طاقاته في هذه الثورة، وبعيداً عن العسكرة والتسليح فقد تجاوزت إبداعات السوريين كل الممكن، وظهرت آلاف المواقع الالكترونية والمبادرات الثقافية والتطوعية الرائعة والتي تعبق بكل نفحات الحضارات السابقة لنقول أن جينات المجتمع لا تموت بموت البشر وأن عقوداً أو قروناً من العبودية والذل والتهميش ستزهر حرية وربيعاً وحضارة من جديد.

آخر الكلام: يقول الشاعر:

دم الشهداء ينبت في ربانا
قناديلا يضيء بها النضال
نموت لتزهر الأجيال فينا
ويضحك في مرابعنا الجمال

المرسوم التشريعي رقم 40 الخاص بإزالة الأبنية المخالفة

■ ياسر مرزوق

أصدر رئيس الجمهورية المرسوم التشريعي رقم 40 الخاص بإزالة الأبنية المخالفة مهما كان نوعها، حيث تضمن المرسوم إزالة مخالفات البناء وفرض الغرامات على مرتكبيها إضافة إلى عقوبة الحبس بمدد مختلفة في حالات من هذه المخالفات، كما شمل المخالفات قبل صدور المرسوم التي يجوز للوحدات الإدارية تسويتها وفق ضوابط معينة.

وتنص المادة الثانية من المرسوم على إزالة الأبنية المخالفة بعد تاريخ صدور هذا المرسوم التشريعي مهما كان نوعها وموقعها وفرض غرامات مالية والحبس بحق كل من تثبت مسؤوليته عن المخالفة وكذلك العاملون في الجهة الإدارية المقصرون في أداء واجبهم في قمع المخالفة.

كما أوضحت المادة إزالة المخالفة وفرض غرامة على المخالفين، إضافة إلى فرض عقوبة بالحبس بمدد مختلفة بحسب المخالفة المرتكبة، وفصلت هذه العقوبات بدءاً من شهر إلى 3 أشهر، وصولاً إلى 10 سنوات من الأشغال الشاقة وثلاثة أضعاف الغرامة في حال انهيار المبنى ووفاة شخص، ومضاعفة العقوبة والغرامة في حال تكرار المخالفة.

وجاء في المادة 5 من المرسوم التشريعي رقم 40 أنه تزال مخالفات الأبنية المنصوص عليها في المادة "2" من القرار بالقانون رقم 44 لعام 1960 والمادة 2 من القانون رقم 1 لعام 2003 والمادة 3 من المرسوم التشريعي رقم 59 لعام 2008 المرتكبة قبل تاريخ صدور هذا المرسوم التشريعي وتطبق عليها النصوص التشريعية النافذة بتاريخ ارتكابها.

وحدد المرسوم 59 نوع العقوبات على من تثبت مسؤوليته بالبناء المخالف سواء كان متجاوزاً على التخطيط المصدق أو واقعاً ضمن الأملاك العامة أو أملاك الدولة الخاصة ضمن الحدود الإدارية أو متجاوزاً عليها أو واقعاً ضمن المناطق الصادر بها صك استملاك أو ضمن مناطق التنظيم أو ممنوع البناء عليها أو عندما يكون البناء المخالف غير حائز على المتانة الكافية أو متعارضاً مع نظام البناء.

فيما نصت المادة "6" على أنه في غير المخالفات المشمولة بأحكام المادة "5" السابقة يجوز للوحدات الإدارية تسوية المخالفات المرتكبة قبل صدور هذا المرسوم التشريعي وفق الآتي:

1 - إثبات قدم المخالفة وتاريخ وقوعها قبل تاريخ صدور هذا المرسوم التشريعي وتحدد وثائق اثبات القدم في التعليمات التنفيذية.

2 - تقديم تقرير فني معتمد من نقابة المهندسين يثبت تحمل البناء وسلامته الإنشائية.

3 - في حال وجود أبنية قائمة ومتجاوزة على الوجائب الإجبارية يجوز للمكتب منح رخص بناء لاستكمال بناء الطوابق المسموح بها في نظام ضابطة البناء شريطة:

أ- ألا يزيد التجاوز على الوجائب للطوابق القائمة والطوابق المراد أو المطلوب استكمال بنائها على نسبة 30 بالمئة من وجائب الرجوع الإجبارية المفروضة في نظام ضابطة البناء.

ب - التقيد بباقي شروط نظام ضابطة البناء النافذ وإلا تقل مساحة العقار عن 75 بالمئة من الحد الأدنى لمساحة العقار المنصوص عليها بنظام ضابطة البناء.

ج- ألا تكون كتلة البناء مشوهة للمنظر العام.

د- أن تكون كتلة البناء سليمة ومترابطة إنشائياً فيما بينها بموجب تقرير مصدق من نقابة المهندسين.

ه- تقديم تقرير فني معتمد من نقابة المهندسين يثبت تحمل البناء لحمولات الطوابق المطلوب ترخيصها وفق نظام ضابطة البناء.

و- تفرض رسوم ضعف المنفعة على المساحات المتجاوزة على الوجائب الإجبارية للطوابق القائمة والطوابق المراد أو المطلوب استكمال ترخيصها وتوضح في التعليمات التنفيذية.

4 - يمكن للمجالس المحلية تعديل نظام ضابطة البناء وفقاً لإحكام المرسوم التشريعي رقم "5" لعام 1982 وتعديلاته.

فندق أمية في ساحة الحرية بدير الزور

وتضمنت المادة (7) من المرسوم أنه لتسوية المخالفة تفرض رسوم مالية على المخالف بقرار يصدر عن المكتب تعادل ضعف المنفعة التي جناها المخالف أو يتوقع أن يجنيها بالزيادة التي طرأت على قيمة العقار أرضاً وبناء ويعفى منها في حال قيامه بإزالة المخالفة خلال مدة لا تتجاوز ثلاثة أشهر من تاريخ تبلغه الإشعار المتضمن فرضها.

كما يعفى المخالف من الرسوم المالية في حال قيامه بإزالة المخالفة خلال مدة لا تتجاوز ثلاثة أشهر من تاريخ تبلغه الإشعار المتضمن فرض الرسوم، ويتم حساب الرسوم المالية للمخالفات القابلة للتسوية وفق أحكام المادة (9) من هذا المرسوم التشريعي.

ويحق للمخالف حق الاعتراض على الرسوم المالية خلال خمسة عشر يوماً من تاريخ تبلغه الإشعار المتضمن فرضها بعد دفع تأمين دراسة اعتراض بنسبة 30٪ من الرسوم، وعلى الوحدة الإدارية دراسة الإعتراض والبت به خلال خمسة عشر يوماً من تاريخ تسجيله لديها ويحتسب مبلغ التأمين من أصل الرسوم المفروضة، و يستوفى من المخالف الذي يطلب تسوية مخالفة بناء في عقاره لم ينظم بها ضبط من الوحدة الإدارية مبلغ مقطوع قدره عشرة آلاف ليرة سورية ويعتبر المبلغ سلفة تحتسب من أصل رسوم التسوية.

بالإضافة إلى أنه يعاقب بالغرامة من 25 ألف ليرة سورية إلى 50 ألف ليرة سورية كل من مالك العقار أو حائزه أو شاغله، والمتعهد أو القائم بالتنفيذ أو المهندس أو الدارس أو المشرف الذين قاموا بإنشاءات دون الحصول على رخصة بناء نظامية أو قاموا بمخالفة الترخيص الممنوح، العاملين في الجهة الإدارية الذين يثبت تقصيرهم أو إهمالهم في أداء واجبهم في الرقابة أو قمع المخالفة.

وتحدد المادة "9" من المرسوم "40" أسس حساب عامل المنفعة في التعليمات التنفيذية لهذا المرسوم التشريعي بقرار من الوزير. وجاء في المادة "12" أنه لا تأثير لتسوية المخالفة في حقوق الغير ويحق لهؤلاء التقدم إلى المحاكم لمطالبة المخالف بالتعويض عن الأضرار التي أصابتهم جراء المخالفة أو إزالتها. وفي حال الحكم بإزالة المخالفة التي تمت تسويتها، واقتران الحكم بالتنفيذ تعاد إلى المخالف الرسوم المستوفاة منه.

كما جاء في المادة "15" أنه ينهى العمل بالمرسوم التشريعي رقم "59" تاريخ 24-9-2008 والقاضي بإزالة الأبنية المخالفة ومخالفات البناء كافة ومهما كان نوعها بالهدم مع مراعاة المخالفات القابلة للتسوية.

كما أصدرت وزارة الإدارة المحلية بموجب القرار رقم /189/ن لعام 2012 التعليمات التنفيذية الخاصة بالمرسوم المذكور والهادفة إلى إتاحة الفرصة أمام المواطنين للتصريح عن مخالفاتهم حتى 2012/12/31 وإبراز إحدى وثائق القدم الخاصة بالمخالفة والبالغ عددها 26 وثيقة والتي تؤكد أن مخالفة البناء قد ارتكبت قبل تاريخ صدور هذا المرسوم وكل من يسدد غرامة مخالفته خلال عام سيتم إعفائه من 25 ٪ من قيمة غرامة المخالفة وقد أدرجت الوزارة آلية احتساب غرامة المخالفة ضمن التعليمات التنفيذية المادة /13/ منها وراعت في ذلك واقع الوحدة الإدارية وصفة البناء واستعمالاته واستثماره وموقع البناء المخالف ضمن الوحدة الإدارية نفسها، كما تم الطلب من الوحدات الإدارية تكليف مجموعة عمل أو أكثر من العاملين لديها لإحصاء مخالفات الأبنية وموافاة الأمانة العامة في كل محافظة لتوحيدها في جدول واحد وموافاة الوزارة بها خلال خمسة عشر يوماً من تاريخه ووجهت الوزارة المكتب التنفيذي لمجلس المحافظة بالتنسيق مع المختصين والمعنيين في الوحدات الإدارية والجهات العامة المعنية على اتخاذ القرار اللازم بتقسيم الوحدات الإدارية حسب المجموعات في الجدول المنصوص عليه في البند /2/ من المادة /13/ وتحديد عامل تثقيل لكل مجموعة حسب صفة الاستعمال والاستثمار للبناء المخالف ووفق الجدول المنصوص عليه في البند /4/ من المادة المذكورة وضمن الحدود المنصوص عليها في البند /3/.

الثـــورة الســـورية:

«الخير والشرّ» أم «المع والضد»؟

■ سامر فرنجية

بين تحرير فرنسا من الاحتلال النازي وصعود محاكم رسمية لمقاضاة عملاء نظام فيشي، مرّت فترة زمنية قصيرة قُتل خلالها آلاف العملاء وتمّ الاعتداء على حوالى عشرين ألف امرأة من جانب مقاومين ومنتقمين. هذا القتل والقمع الشعبي والعشوائي لم يتوقف إلا مع بروز محاكم رسمية أخذت على عاتقها عملية التطهير الإداري والسياسي، وشكل نقطة سوداء في سجل المقاومة الفرنسية وأساطيرها. والحال أن تلك الممارسات كانت بربرية وغير أخلاقية، سقط ضحاياها بالآلاف، بعضهم لمجرد الاشتباه بعمالتهم. غير أنها مع كل قذارتها، لم تُسقط تلك المرحلة السوداء أخلاقية المقاومة الفرنسية. فهذه «الفوضى من الشجاعة» كما سمّاها أندريه مالرو، وهي أحقية معركة التحرير من النازيين أو شرعية الدولة الجديدة المنبثقة جزئياً من تلك الممارسات والأساطير.

تُظهر التجربة الفرنسية التباس علاقة الأخلاق بالسياسة وتعقيدها. وتلك التجربة ليست معزولة. فوراء كل أمّة أو دولة أو مؤسسة أو هوية، ممارسات تفتقر إلى الحد الأدنى من الأخلاق، تجعل ميزان «الخير والشرّ» غير قادر على التقاط دلالات الحدث التاريخي. هذا لا يعني نفياً لأية علاقة بين السياسة والأخلاق، ولكنه يعارض مبدأ استنتاج الواحد من الآخر، وكأن التاريخ مجرّد ثنائيات أخلاقية تتصارع.

الكلام عن علاقة الأخلاق بالسياسة فرضته الحملة «الأخلاقوية» التي أطلقت منذ فترة ضد الثورة السورية. فمع ازدياد الأخبار عن انتهاكات بعض الثوار وجرائمهم، قامت حملة نقد للحراك السوري، أرادت أن تتحرر من ثنائية «المع والضد» القامعة للنقد، لاستبدالها بثنائيات أخلاقية، كتلك القائمة على «الخير والشرّ». ومفاد تلك الحملة أنه مع كل سقوط أخلاقي للثورة، يتضاءل الفارق بين النظام والمعارضة، ليصبح من المستحيل التمييز بينهما. هكذا بدأ يتحجج بعض المحرجين من الثورة (وبعض فاقدي الشجاعة في موقفهم الداعم لبشار الأسد) بهذا التراجع الأخلاقي لإطلاق شعار الضد، أي ضد النظام والمعارضة سوية.

لكن تلك المقولة، المريحة سياسياً للمحرَجين، غير دقيقة. فلمن تهمّه الأخلاق، لا بد من إتباع معيار واضح (إن وُجد)، يمكن من خلاله معايرة الواقع. فإذا لم يعد ممكناً إنكار جرائم بعض الثوار، فهذا لا يبرر إطلاقاً معاملتهم كمرادف أخلاقي للنظام الذي يتبع عملية إبادة منهجية لشعبه. كما أن من يريد إتباع هذا المنطق الأخلاقي، لا بد من أن يعيد معاينة أكثرية التجارب التاريخية، لكي يستنتج أن لا فارق بين مقاوم ومحتل، معارض وسلطة، ضحية وجلاد. فمن هذا المنطلق، لن تنجو أية حركة تحرر وطني، أكانت فلسطينية أم عربية أو عالمثالثية، من هذا النقد. والغريب هنا، أن جماعة المحرجين الممانعين، أيتام فرانز فانون ومقدمات سارتر العنفية، لم يطبّقوا معاييرهم الأخلاقية إلا على خصومهم، وكأنهم يعترفون بقصورهم الأخلاقي وتفوّق الخصم على هذا الصعيد، أكان إسرائيلياً أم أميركياً أم غربياً.

استثناء الأخلاقويين الجدد من النقاش لن يلغي المعضلة الأخلاقية التي أبرزتها الممارسات الشنيعة لبعض الثوار. غير أن طرح تلك المعضلة يحتاج إلى تحديد هوية الفاعل الذي يمكن تحميله مسؤولية تلك الارتكابات الأخلاقية. فالثورة ليست فاعلا موحّداً يمكن شجبه أو إدانته، بل هي عنوان فضفاض أعطى لتحرك واسع لا توحّده إلا معارضته للطاغية. ذاك أنه في مقابل كل تجاوز طائفي أو جريمة شنيعة، هناك آلاف صرخات «سلمية» تُطلق ومقاومات سلمية تُمارس وغرافيتي تُقمع. فاللجوء إلى التحليل الكمّي لن يفيد هنا... فالثورة سلمية وعنفية، شجاعة ومجرمة، طامحة للحرية وللقمع المذهبي. الثورة، كما كتب ياسين الحاج الصالح، «عملية حية»، وما لا يُحتمل هو «نقل أخلاق جاهزة (ووعي جاهز) إلى ثورة يفترض أنها مجردة منهما» أو «الاكتفاء الفكري والأخلاقي للثورة، والموقفان أقرب إلى بعضهما بعضاً مما يبدو». هذا ليس للقول إن حيوية الثورة تعفيها من المحاسبة الأخلاقية، بل العكس تماماً، وهو أن المحاسبة الأخلاقية هي في الانخراط في الثورة والعمل لنحتها وتصحيحها وتجديدها. فإذا لم تكن الثورة فاعلاً تمكن محاسبته بتجرّد، كذلك فإن ما يسمّى «الجيش السوري الحر» فاقد لصفة الفاعل، كما كتب حازم الأمين. فالكلام عن مسؤولية الجيش الحر «نقاش من خارج سورية، يُخترع فيه هذا الجيش وتُرسم صور له وتُحدد وظائف افتراضية لـ «كتائبه». يُقال مثلاً إن «الجيش الحر فعل ذلك»، فيتصور المرء جيشاً وقيادة وقراراً، وهذا ليس حقيقة ما يجري.

والحال أن أول ما أصاب هذا الجيش هو اسمه!». وهذا التوضيح لحقيقة الجيش الحر لا يعني إعفاءه من مسؤولياته تجاه ارتكابات بعض عناصره، بل بالعكس، دفعه لتحمّل عبء أفعاله ولتحوله جيشاً يمكن أن يحاسب أخلاقياً.

من خلال سحب صفة الفاعل عن الثورة أو الجيش السوري الحر، أعاد الكاتبان موضعة النقاش من مجرّد معاينة أخلاقية باردة إلى مسألة سياسية تواجه الثوار قبل خصومهم المحرجين. فبدل السؤال المبتذل عن أخلاق الثورة، وهو سؤال مجرّد لن ينجو من تشكيكه أي عمل سياسي مهما كان نبيلاً، يجب طرح السؤال عن منطلق المعاينة الأخلاقية هذه. فلتلك المحاسبة الأخلاقية منطلقان، يعيدان توكيد أولوية «المع والضد» على «الخير والشر». المنطلق الأول هو حاضر الثورة، وينطلق همّه الأخلاقي من داخل المعترك، ليواجه معضلاته كتحدّيات سياسية تُحل بالممارسة وليس من خلال التنظير. بلغة أخرى، ثنائية «الخير والشرّ» ليست بديلة عن تلك القائمة على «المع والضد»، بل مضمونها. فالأخلاق هي في الممارسة السياسية، وليس في المحاكمة المجرّدة من أي انتماء.

أما المنطلق الثاني لمعاينة الثورة، فهو في المستقبل. بهذا المعنى، مستقبل سورية هو ما سيقرر ما إذا كان سقوط هذا الكمّ من الضحايا من جميع الأطراف، مدخلاً الى سورية ديموقراطية ومستقرة أو قتلاً عبثياً لا يولّد إلا قتلاً إضافياً. قد يبدو هذا الكلام ماكيافيلياً في برودته، وتلويناً على المقولة المبتذلة من أن لا صوت يعلو فوق صوت المعركة. غير أنه عكس ذلك، فهو تراجيدي في اعترافه بالواقع الذي لم تعد توجد أساطير لستره. فالحراك الحالي واقع بين أسطورة الثورة، التي سقطت مع مرور الزمان، وأسطورة الدولة التي تبرّر ماضيها بمستقبلها، والتي لم تولد بعد. الثورة «ما وراء الخير والشر» تنتظر مستقبلها لتحديد أخلاقيتها. فلا معنى للكلام عن أخلاقية الثورة السورية من جانب من لا يشاركها المصير واليوميات والمآسي.

إن أخلاقية الثورة هي نوع المستقبل الذي يُبنى اليوم في المعترك الثوري من جانب مناضلين يضحّون بحياتهم من أجل غد أقل بؤساً. ومعاينة الثورة المجردّة كلام فارغ، يشبه من يناطح التاريخ من مكان بعيد، وبدل ثنائية «الخير والشر» الأخلاقية، يجب التمسّك بالثنائية النضالية والنقدية القائمة على «المع والضد». وهذا ليس منعاً للنقد، بل تسييس له لإعطائه بعض المعنى وتحريره من جيوش النقاد الأخلاقويين.

دار الحياة اللندنية 7 / 9 / 2012

نجيب الأرمنازي 1897 - 1968

■ ياسر مرزوق

من اليمين: صبري العسلي - صادق غراوي - شكري القوتلي - نجيب الأرمنازي.

ولد نجيب محمد الأرمنازي في حماة عام 1897، لعائلة " الأرمنازي" المعروفة في حماه. و الأرمنازي لقبٌ عرف به الكثيرون ممن هاجر من أرمناز وأقام في سواها، فنسبه الناس إلى مدينته "أرمناز" التي هي مسقط رأسه ونسيت نسبته إلى عائلته، وهم في الأصل من عائلة حمادة المعروفة بـ "كبتولة"، الذين عين جدّهم قاضياً في مدينة حماة زمن حكم العثمانيين وأقام فيها. ولبعد المسافة وصعوبة وسائط الاتصال آنذاك انقطعت علاقته بعائلته وتزوج في حماة وأسس العائلة التي ينتمي إليها نجيب بيك. وهو الشقيق الأصغر للصحافي علي الأرمنازي الذي أعدمه أحمد جمال باشا في بيروت عام 1915. واسم الأرمنازي معروفٌ للدمشقيين نسبةً إلى قصر العائلة الواقع في منطقة العفيف والذي استأجره الرئيس القوتلي من صديقه "الدكتور نجيب الأرمنازي" الموفد إلى جمهورية مصر العربية كسفير للدولة هناك وبقي بيت الأرمنازي سكناً للقوتلي في فترة حكمه الثانية للجمهورية العربية السورية حتى عام 1956، ويعتبر هذا القصر الذي حافظ على حاله ومعالمه الرئيسية منذ أن تركه القوتلي حتى يومنا هذا من أهم الأوابد المعمارية الدمشقية في العصر الحديث ومازال حتى الآن مسكناً للأسرة.

تلقّى الأرمنازي علومه الابتدائية والثانوية في المدرسة العثمانية، ثم درس العلوم العالية في اختصاص الحقوق في باريس، واستطاع الحصول على شهادة العلوم الدولية العليا من جامعة باريس، وهي أعلى شهادة نالها شاب خرج من مدينة حماة في ذلك الوقت.

عاد إلى سوريا ليمارس الصحافة، فكان عضواً في جمعية أدبية يرعاها "الملك فيصل" اسمها "الجامعة الأدبية" وكان من أعضائها: "خير الدين الزركلي والشيخ فؤاد الخطيب ويوسف حيدر والشيخ رضا الشبيبي" كما تولى إدارة تحرير جريدة "الراية" الحلبية لصاحبها منيب الناطور التي صدرت في حلب في 1919/4/29، والتي ما لبثت أن أغلقت مع عدد آخر من الصحف في بداية الانتداب الفرنسي. ومن خلال العمل الصحفي أقام الأرمنازي علاقاتٍ مع الساسة السوريين، حتى أنه قام بكتابة بيان استقالة الرئيس "صبحي بركات" الذي لم يكن متمكناً من العربية عام 1925. وقد اعتمدته جريدة الأهرام في القاهرة محرّراً له شأنه في السياسة الدولية، والعلاقات الخارجية، حتى أنه كان يترجم ترجمة مباشرة عن الفرنسية والتركية والانكليزية. وينشر في سائر المجلات والدوريات العربية، وفي البدايات كانت له انتماءات وطنية وسياسية إلى حزب الشباب العربي وحزب العهد والاستقلال، وحزب الفتاة، وقد اختير في عام 1920 ليكون رئيساً لديوان المؤتمر السنوي، ومع استمرار التضييق على الصحافة سافر إلى فرنسا ليتابع علمه وينال شهادة الدكتوراه في القانون بأطروحة موضوعها واسمها "الشرع الدولي في الإسلام".

عاد إلى دمشق مديراً مسؤولاً في جريدة "الأيام" التي كانت تصدر في دمشق في 1931/5/10 والتي أصدرتها الكتلة الوطنية وكان مدير سياسة الجريدة الصحفي عارف النكدي وذلك قبل أن يشتري امتيازها نصوح بابيل ويصدرها في 1932/8/15.

في عام 1932 عين نجيب الأرمنازي مديراً لمكتب رئاسة الجمهورية، وفي عام 1942 كان سكرتيراً عاماً لرئاسة الجمهورية. و في عام 1945 عمل في الخارجية والسلك الدبلوماسي فكان وزيراً مفوضاً في بريطانيا والهند وتركيا ثم سفيراً في مصر، وكان أحد مندوبي سورية في مفاوضات الجامعة العربية لعامي 1943 و1944، حيث شارك مع الوفد السوري في المؤتمر التأسيسي لجامعة الدول العربية والذي ترأسه السيد سعد اللّه الجابري رئيس مجلس وزراء سوريا والسيد جميل مردم بك وزير الخارجية ونائب دمشق السيد صبري العسلي ومن ثمّ سمّي وزيراً مفوّضاً للحكومة السورية في لندن عام 1945، و كان مندوب سورية الدائم في المؤتمر الثقافي في لندن، وعضو اللّجنة التحضيرية لهيئة الأمم المتحدة، وكان في الوقت نفسه واحداً من أعضاء الوفد السوري في اجتماع الهيئة العامة ومندوباً في مفاوضات الحكومة السورية في لندن لأمور "فلسطين" عامي 1946 و1947 أي قبيل النكبة بسنة واحدة. وبعدها سفيراً في القاهرة ثم لندن حتى أواخر عام 1956 حين تقاعد وظيفياً، لكنه لم يترك العمل الصحفي والشأن العام.

عايش الأرمنازي تجربة الوحدة مع مصر، والتي شهدت تضييقاً على الصحف والحريات العامة لم تعرفه سوريا من قبل. وفي الثامن والعشرين من أيلول عام 1961 صبيحة الانفصال ولدعم موقف قائد الانقلاب اجتمع نفر من السياسيين السوريين وقادة الأحزاب القوميّة والوطنيّة في دار السيد أحمد الشرباتي لإصدار بيان بإنهاء الوحدة لخروجها عن أهدافها وتأييد حكومة الانفصال، ووصفوا حركة الجيش بالثورة المباركة، ووصفوا حكم عبد الناصر بالتسلط والطغيان والانحراف، وخنق الحياة السياسيّة، ووأد الحريّات العامّة وتشويه فكرة القوميّة العربيّة، وكان من أبرز الموقّعين على البيان: زعيما حزب البعث أكرم الحوراني وصلاح الدين البيطار، والدكتور بشير العظمة أحد الرموز اليساريّة، والنائب السابق للرئيس، والضابطين أمين النفوري، وأحمد عبد الكريم، ومن حزب رشاد جبري وأحمد قنبر، ومن الحزب الوطني أسعد هارون وحسن مراد، ومن الدمشقيين أحمد الشرباتي، وخالد العظم، ومن حمص هاني السباعي. وتقول السيدة نزيهة الحمصي زوجة الحوراني في مذكراتها إن البيطار هو الذي كتب وثيقة الانفصال بخط يده مع نجيب الأرمنازي.

وقد عاش الدكتور نجيب الأرمنازي حياة حافلة بالعمل الوطني، وكان يتمتّع بالثقافة العالية الرفيعة، ويتقن ثلاث لغات، قراءة وكتابة. وقد أضاف للمكتبة العربية العديد من المؤلفات والتي كتبها بلغة آسرة فصيحة، وأسلوب مشرق، وسرد شفيف يجمع بين التوثيق والأدب، نذكر منها "الشرع الدولي في الإسلام، مذكرات دبلوماسي، السياسة الدولية وأشهر رجالها، سورية من الاحتلال وحتى الجلاء الحملة المصرية ـ ترجمة عن التركية العثمانية ".

توفي نجيب بيك في دمشق عام 1968ودفن فيها.

أما ما أورده عنه الزركلي في كتابه "الأعلام": نجيب بن محمد الأرمنازي، الدكتور، صحفي، من رجال السياسة في سورية، مولده في حماة، ووفاته في دمشق، درس الحقوق في باريس، وأحرز الدكتوراه في العلوم الدولية، وأحسن اللغات التركية والفرنسية والإنكليزية، وأصدر جريدة الأيام (1931) في دمشق، ودخل السلك السياسي سنة 1945، فكان وزيراً مفوضاً لسورية في لندن وفي الهند وتركية، ثم سفيراً لها في مصر، ففي لندن إلى أواخر(1956)، له كتب مطبوعة منها (الشرع الدولي في الإسلام)، و(مذكرات دبلوماسي)، و(عشر سنوات في الدبلوماسية)، و(السياسة الدولية) مجلدان، و(سورية من الاحتلال حتى الجلاء). وترجم عن التركية (الحملة المصرية أو من باريس إلى صحراء التيه ـ ط). وهو شقيق الشهيد علي الأرمنازي.

أن تكون هناك..

خيمياء الثورة من الداخل

■ جمال خليل صبح

شاءت لي الأقدار أن أدخل إلى بعض المناطق المحررة في سوريا. كانت تجربة روحية و فكرية ملأى بالكثير، قررت أن أرصدها بكلمات و سطور. من نافلة القول التأكيد على أن هذه التجربة "ذاتية" بحتة ولا يستقيم معها التعميم على جميع المناطق وعلى كل الحالات، كما أنها لا تعكس إلا جانباً واحداً من واقع متعدد وثري، لا يمكن رصده من زاوية محددة أو حادّة. إن زيارة المناطق الثائرة تعكس جوانب الثورة نفسها من تنوع فائق يطال كل شيء. إنه الزمن السوري الجديد بكل ما يحمل من تحديات وفضائل، بكل ما يحمل من ألم ومعاناة، بكل ما يحمل من وقائع صادمة وآمال رست على شواطئ لا تخصّها. لا تكفي بضعة أيام للتعرّف على بقعة ثائرة على التراب السوري، إلا أنها كافية تماماً حتى يعرف المرء أن عقارب الزمن لا يمكن إعادتها إلى الوراء.

أتحفظ على ذكر بعض المناطق أو الأسماء الخاصة بالأشخاص أو الكتائب، وذلك لضرورات أمنية وأخرى أخلاقية. كل خطأ أو "خطيئة" وردت بين كلمات هذا النص لا يتحمّل مسؤوليتها إلا كاتب المقال نفسه. فـ"هكذا بدا لي العالم"...!؟

عن "الجيش الحر" بقضّه وقضيضه

ليس هناك من ظاهرة تستحق النظر كتلك التي تتعلق بالشق العسكري من الثورة، أو كما يدعى "اصطلاحاً اعتباطياً" بالجيش الحر. تحركات الرجال المسلحين في المناطق المحررة لا تخطئها عين الزائر ولا تحيد عنها تساؤلات عدّة تمتزج بمشاعر مختلفة يمكن أن تذهب حدّ التناقض أحياناً. خليط ومزيج ذو ملامح مختلفة يندرج من طبيعة النظام العنيف إلى تطورات طرأت على حال الثورة، مروراً بتاريخ المناطق الثائرة وطباع ساكنيها أخرجت جانباً على قدر كبير من التعقيد البنيوي والعملياتي، حمل على عاتقه التصدي لقوة النظام الضاربة بالسلاح، لا بل والشروع في عملية تحرير طويلة الأمد، دامية وقاسية. لم يعد سراً أن غالبية الثائرين الذين يحملون السلاح لم يعودوا من المنشقين العسكريين في الجيش النظامي، إذا لا يشكل هؤلاء إلا ثلث المكون العام على أبعد تقدير. في المناطق المحررة التي استطعت الوصول إليها يشكل أبنائها العمود الفقري لمكونات الهياكل والتنظيمات المسلحة، مع إمكانية ملاحظة وجود أشخاص من مناطق بعيدة من الوطن السوري لأسباب مختلفة، منها ما هو شخصي ومنها ما ينبع من ظروف حتّمت على أصحابها العمل في مناطق بعيدة عن منبعهم الأصلي. فأحد قادة الكتائب التي كان لها شأن كبير في عملية تحرير مدينة أعزاز ينحدر من درعا مثلاً، بينما ترى مقاتلين من مناطق حمص وحماه يعملون ضمن كتائب تنشط في ريف إدلب الملتهب، وخاصة فيما يشبه مثلث الرعب سراقب، جانبي عابر. يحدّث أمثال هؤلاء عن حلمهم في تطبيق شرع الله الذي "لم يدع لنا شيئاً إلا وأعطانا هدى فيه لتدبير أمور الناس" في المجتمع الإسلامي الفاضل، المجتمع الذي "تذوب فيه الفوارق بين الغني والفقير"، المجتمع الذي "تسود فيه قيم العدل بين عباد الله أيا كانت درجاتهم". فيما يبحر آخرون في الشرح حول درجات "الجهاد" وأنواعه إلى درجة لا يعود المتابع قادراً على التمييز بينها.. !!

من المرجح أن يكون أفراد هذه التنظيمات غير حاصلين على تعليم عال عدا بعض الأفراد أو القادة الذين كان لهم نصيب ما من التعليم الشرعي الديني من معاهد وكليات سورية في أغلب الحالات. هذه الجماعات المميّزة لا يؤكدون صراحة على انتمائهم للجيش السوري الحر، لا بل ويجاهرون بتمايزهم عنه فكراً و سلوكاً. إلا أن جزءاً مهماً ممن امتشق السلاح والتحق بكتائب عسكرية حسنة التنظيم هم أولئك المدنيين من أبناء المناطق الذين انخرطوا في نشاطات الثورة سلمية الطابع منذ البداية، ووجدوا أنفسهم مضطرين لحمل السلاح للدفاع عن أملاكهم وحياتهم وحياة عائلاتهم وأطفالهم بعد شيوع وتكرار المجازر الطائفية المتنقلة، كما يحاجج من التقيت به منهم. في هذه التنظيمات يمكنك أن تجد تشكيلة متباينة من الأشخاص مثل ذلك المهندس المدني الذي أصبح قائد كتيبة مسلحة أو منسقاً عاماً لعدد من الكتائب المقاتلة، أو ذلك الصحفي النشط الذي يغطي نشاطات الكتائب الإعلامية وبياناتها بحرفية عالية، أو ذلك المغترب الذي قفل راجعاً إلى منبته الأصلي، مستفيداً من علاقاته التي بناها في الخارج محاولاً التأمين اللوجستي لكتائب مختلفة يجمعها حسّها المناطقي العالي. يحدثك المتطوعون المدنيون في "الكتائب" المسلحة عن أهمية تواجد أمثالهم في "الجيش الحر" حتى لا تبقى الغلبة للإسلاميين الجهاديين، "الغلبة" التي لم أرها بادية على ذلك النحو في المناطق التي زرتها على الأقل. هذه الفئات من الأشخاص لا يضرها إلحاقها ووسمها بكتائب "الجيش الحر"، حتى وإن كانت مرجعيتها لا تمت إلى الذهنية العسكرية بصلة.

يخيل للمرء وبسبب التفاوت الواضح في ملامح وهيكليات، بل وتجهيز الكتائب المسلحة، أن صراعاً دموياً بينها قائم أو قادم لا محالة. ليس هناك ما يدعم هذه الفكرة في الوقت الحالي حتى مع وجود إشكالات أو أزمات قد تتطور إلى اشتباكات محدودة تظهر بين الحين والآخر. العلاقات بين الكتائب المسيطرة على مناطق محددة ليست دائماً على ما يرام، ولكن هناك درجة عالية من الاحترام المتبادل، بغض النظر عن التفاوتات والتمايزات الظاهرة والكامنة. مع الإشارة إلى بعض العوامل العائلية والعشائرية والمناطقية التي يمكن أن تسهم في وأد أي صراع أو إشكال على درجة من الخطورة، حالة من "التوازن الاجتماعي" إن صح التعبير، مدعّم بدور إيجابي كبير لما بات يعرف بـ"اللجان الشرعية" التابعة لكل منطقة أو مجال حيوي من الكتائب، والتي يتكون أعضائها من شخصيات دينية وعسكرية ومدنية تحظى باحترام كبير في مجتمعاتها المحلية، وتتدخّل لفض النزاعات حول قضايا معينة من ضمنها كيفية معاقبة بعض الأفراد الذين يقومون بتجاوزات لا يمكن السكوت عليها مثل أعمال السرقة والتشبيح والتعرّض لأملاك الغير، كما حدث و يحدث في بعض الأحيان نتيجة

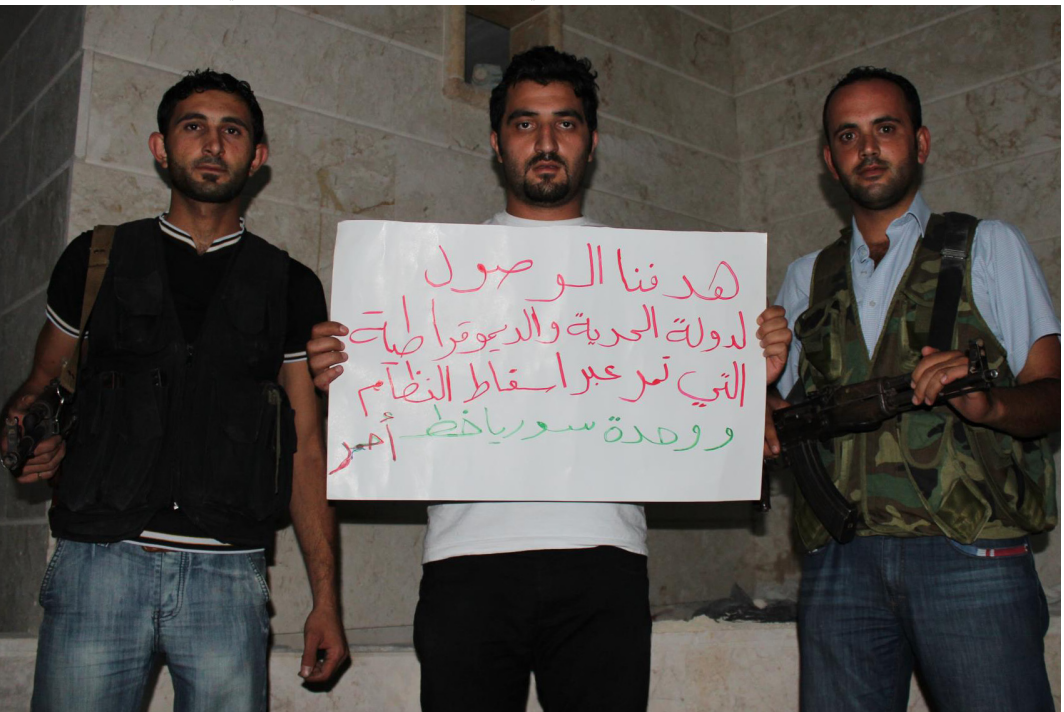

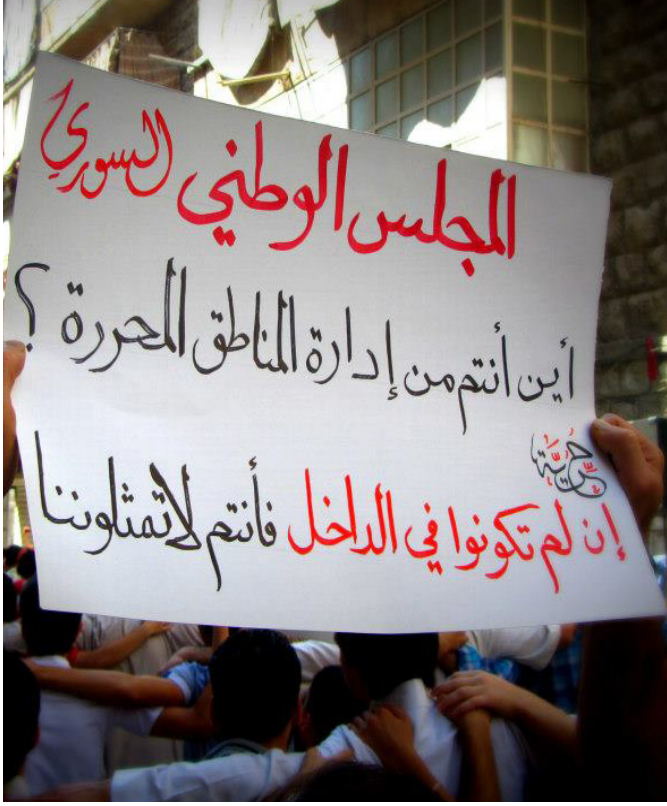

غياب السلطة المركزية أو الهيكلية التنظيمية التي تنصهر من خلالها الوحدات المقاتلة.

تتباين الكتائب والتشكيلات المسلحة في مهامها أيضا. فكتائب الجيش الحر التقليدي من العسكريين والمنشقين تحاول جاهدة القيام بعمليات التأمين اللوجيستي (السلاح خاصة) بالإضافة إلى التخطيط العام والتكتيك المرحلي للعمليات القتالية على الأرض حسب ما تقتضيه المرحلة. بينما تتشارك كتائب الإسلاميين "السلفيين" مع الكتائب الأخرى ذات الصبغة "المدنية" بمهام لا تقل أهمية عن العمليات القتالية من أبرزها تأمين طرق اللاجئين وتوصيل الجرحى من المدنيين والمقاتلين إلى المشافي الميدانية أو إلى المناطق الحدودية التركية في الحالات التي لا يمكن علاجها في الداخل السوري، كذلك تأمين وصول الصحفيين والشخصيات الزائرة القادمة من الخارج، وضمان سلامتهم وتنقلاتهم مع ضلوع الكتائب المدنية المسلحة بشكل أكبر في هذه المهام نوعا ما. ولا داعي للتذكير بأن جل هذه المهام يعني التعرّض الدائم لخطر القصف الجوي من طائرات النظام التي لا تكل ولا تمل من التحليق فوق المناطق المحررة. فالمجموعة التي تكفلت بإيصالي إلى الحدود التركية مثلا تأخرت حوالي الثلاث ساعات وذلك نتيجة التعرّض إلى القصف من طائرة قريبة في وقت كانت تحاول فيه إدخال مساعدات غذائية (مئات من ربطات الخبز) إلى مدينة أريحا التي كانت واقعة تحت حصار خانق وقصف عنيف طيلة أيام عدّة. ورغم اشتراك الكتائب جميعها في العمليات القتالية المعقدة ذات التحضير الجيد (مثل محاولات اقتحام مطار منّغ قرب أعزاز أو مطار تفتناز جنوب إدلب) أو تلك العمليات الاضطرارية أثناء الاقتحامات المفاجئة لقوات النظام، إلا أن أبرز العمليات ضد قوات النظام و أكثرها شجاعة ونوعية هي تلك العمليات التي تقوم بها الكتائب ذات الهوى السلفي، كما يتهامس كثير من الأعضاء الذين ينتمون إلى مشارب واتجاهات شتى.

على غير ما يشاع، هناك نقص حاد في تسليح الكتائب المقاتلة بأنواعها المختلفة، وذلك يعود إلى عوامل عدّة منها ما يتعلق بولاءات مناطقية أو أخرى على علاقة بيروقراطية قادة الجيش الحر المتواجدين في تركيا، وحتى بآلية عمل المجلس الوطني في هذا الجانب، والتي لا تحسن إلا الارتجال والتوزيع غير العادل والشحيح لما تيسّر من أسلحة (بالقطارة، كما أشار أحد قادة الكتائب). النقص لا يختص بأنواع الأسلحة الخفيفة على الأغلب، وإنما بالذخيرة أيضاً. أحد الثوار المسلحين كان أكثر ما يزعجه هو عدم قدرة المشيعين على "الاحتفال" بالشهداء ببعض الطلقات في الهواء، وذلك منعا للهدر من جهة، وتجنبا لاستجرار طيران النظام من جهة أخرى. لا يمكن تعداد الأفراد المقاتلين الذين اضطروا إلى بيع مقتنياتهم الرخيصة والنفيسة في سبيل الحصول على قطعة سلاح (كلاشينكوف أو قاذف أر بي جي) في أوقات وصلت فيه الأسعار إلى أرقام فلكية كما تفيد أحاديثهم اليومية. فهذا باع مصاغ زوجته وأمه، وذاك تخلى عن ميراثه، وآخر باع قطعة من أرضه لقاء الحصول على ثمن يؤمن من خلاله سلاحا فرديا وذخيرة تصمد بضعة ساعات أو أيام. هذه الحال ما زالت مستمرة حتى وقتنا الحاضر من عمر الثورة.

كأي تنظيم اجتماعي، تضمّ الكتائب المسلحة المنضوية تحت لواء الثورة أفرادا لهم طباع وشخصيات متباينة ومتفرّدة. منهم الطيب والخبيث، منهم عسر المزاج ومنهم دمث الأخلاق وطيّب الكلام. تشعر بتناقض غريب، فاختلافهم يزيد من ارتباطهم، وتفرّدهم يكمّل هويتهم الجمعية. رغم أجواء التوتر "المزمن" إلا أن روح النكتة والمرح تظل حاضرة، وهو ما يذكّر بخصال الشخصية السورية التي تبتعد عن التجهّم والصرامة. قبل رحيلنا بقليل دخل أحد الشباب وكان باديا عليه الانهماك بشي نجهله، سألت الحاضرين إن كان من أحد أفراد الجيش الحر، فقفز "أبو صطيف" الثائر المسلح من مدينة الجسر وقال هازئا: لا هادا من الجيش "الكر"! زلزت الضحكات المتعالية أرجاء الغرفة، قاطعها صوت قذيفة يبدو أنها سقطت بالقرب، بعدها ساد صمت عميق ومطبق...!

عن موقع الجمهورية لدراسات الثورة السورية

طفل الحديقة الدمشقية.. حيث لا مكان

■ حسان عباس

الساعة السادسة صباحاً من آخر يوم جمعة من شهر آب عام 2012. حديقة من حدائق مركز مدينة دمشق. بقايا مرج أخضر، ومساحات ترابية ضيّقة تتداخل لترسم ثوبا مبرقعا يخفي وجه الأرض.

على هذه الأرض، وبين كثير من أكياس النايلون التي لم تصل هنا لتلوين المشهد، كتل بشرية مستلقية، لا تفاصيل لها، كأنها ضربات ريشة خشنة وزّعها، فوق لوحة الحديقة، رسام فوضوي. فجأة، وفي طرف المشهد، ينتصب جسد صغير، كل ما فيه يوحي من بعيد بأنه جسد طفل خطا نحو المراهقة. تسع سنوات أو عشر، ليس مهماً أن نعرف، بل ربما لم يعد ممكناً أن نعرف لأن الوثائق التي تثبت ميلاده راحت في جملة ما راح في ذاك الذي كان بيتاً في مكان ما من ضواحي دمشق المدمّرة. أدار الطفل النائم - الواقف رأسه بحركة كسولة. لم يكن يستطع المكان، كان يبحث عن نقطة ارتكاز، عن معلم ما يطابق صورة مختزنة في ذاكرته. لم يوفّق في المحاولة الأولى، فألحقها بأخرى تحمل قدراً أكبر من الإرادة، إرادة الكشف عن معلم أليف. يبدو أنها أيضاً لم تنفعه، فأجهش ببكاء كامد لا صوت له لكن ارتعاش الجسد وبعض الشهقات فضحته. رفع إلى وجهه رسغين عاجزتين وضغط بهما على عينيه، وحين رآني أشاح بوجهه، ثم تهاوى إلى مكانه السابق، كتلة ضئيلة من بين تلك الكتل المستلقية على أرض الحديقة.

يحكي هوميروس في الملحمة اليونانية الشهيرة «الأوذيسة» قصة «إيلبينور Elpinor»، وهو شاب من رفاق «أوليس» في طريق عودته إلى موطنه بعد انتصار طروادة. وذات صباح، وبعد أن خمر الجمع احتفالا بالخلاص من مفاعيل الساحرة «سيرسيه»، استيقظ «إيلبينور» النائم فوق مصطبة ثملاً، وبما أنه لم يكن قد ألف معالم المكان الذي كان ينام فيه سقط عن المصطبة ودقت عنقه. وقد استثمر علم النفس هذه الحكاية الأسطورية لتوصيف مجموعة من الأعراض أطلق عليها اسم «تناذر إيلبينور» تعبر عن اضطراب نفسي يتجلى بحالة تغيّم وعي تمحي خلالها الذاكرة المعلمية للمريض، فيفقد توازنه ويهوي، ويمكن أن يقدم أحيانا على ارتكاب فعل جرمي.

أغلب الظن أن طفل الحديقة الدمشقية سقط عند إفاقته غير المكتملة لأنه لم يتعرف إلى المكان الذي وجد نفسه فيه، إذ لا شيء مما يحيط به في فضائه المؤقت هذا يجد له في ذهنه صورة راسخة يتطابق معها. فضاؤه المؤقت هو الخواء ذاته. لا جدار يحمل صورة الأب الشهيد أو إيقونة أو آية الكرسي. لا نافذة تتسلل عبرها أشعة الشمس، ورياح الشتاء، ووعود العصافير. لا سقف يمنحه الشعور بالأمان... أما الأثاث فإما «نُقِلت» قطعه لتملأ زوايا وغرفا فارغة في بيوت أخرى، في مناطق أخرى، وإما اختلط ركامها مع ركام البيت المدمّر أو احترقت في النار التي عصفت بالبيوت.

في المكان الذي جاء منه الطفل، كانت كل هذه الأمور (الجدار والنافذة والسقف والأثاث...) حاضرة، ماثلة، ولد الطفل وكبر بينها. وتشكلت ذاكرته البصرية والمعلمية اعتماداً عليها. لو أفاق الطفل في عتمة الليل لما احتاج هناك إلى ضوء ليعرف طريقه في زحمة الأشياء، أما هنا في الفضاء الخاوي فهو لا يعرف كيف يتجه فيسقط حيث يقوم.

في المكان الذي جاء منه الطفل كان ثمة مكان، وكان ثمة وجود، وكان ثمة ذاكرة. كان ذلك قبل أن يقرر عقل شيطاني يستخفّ بالذاكرة ويهزأ بالوجود (ما عدا وجوده هو)، أن يدمر المكان ويشرد أهله ويقذف بهم إلى حيث لا مكان.

كم هي مساحة الدمار في سورية الآن؟ وكم ستصبح غداً؟ كم يبلغ عدد المواطنين المهجرين من بيوتهم؟ كم عدد البيوت التي لم تعد قابلة للسكن؟ كم عدد الأحياء التي لم يبق منها سوى اسمها؟ كم عدد العائلات التي أصبحت بلا مأوى؟ مجرّد التفكير بهذه الأسئلة يبعث اليأس والألم، فما بالك إن عرفنا الأجوبة! لكن أين المهرب من التفكير في هذا الواقع الناشئ بفعل العقل الشيطاني؟ بل أين المهرب من تجاوز الأعداد المجردة والباردة، رغم كل ما تبعثه من حزن، للوصول إلى الإنسان، إلى الحقيقي في ذاك الواقع، إلى طفل الحديقة وعائلته، أو من تبقى منها. كيف يمكن له، لهم، أن يعيدوا بناء ذاكرتهم البشرية بشكل سوي؟ «أن نكون بشراً يعني أن يكون لنا مسكن» يقول «باشلار». والمسكن، مرة أخرى، هو الجدار والسقف والنافذة والأثاث...، إضافة إلى «التاريخ» الذي نما في كنفها وبين تلافيفها، المسكن هو الذاكرة التي نسكن إليها. أما في الحديقة، حيث لا مكان، فلا يمكن لأحد أن يبني ذاكرة. الذاكرة لا تبنى على خواء.

المواطنون السوريون المهجّرون إلى الأبنية المدرسية ليسوا بحال أفضل من أولئك الباقين بلا مأوى، سكان الحديقة. لأنهم سكنوا إلى مكان وهمي، أرخوا روحهم على جدران ونوافذ وسقوف متهالكة، وهم يعرفون أنه لا يعوّل عليه. زد على ذلك أن هذا المكان لا يمكنه أن يحتضنهم، فهو مرصود لحنان من نوع آخر. حنان عليه أن يغمر أطفالا سيأتون ليتعلموا، في أمل أن يساهموا في بناء وطنهم.

لكن الخوف كل الخوف ألا يجدوا هذا الوطن. وأن يصبح الجميع، أهلهم وهم ونحن، حيث لا مكان.

ملحق السفير الثقافي 7 / 9 / 2012

سوري.. فلسطيني.. والقاتل واحد

■ سعاد يوسف

لذاكرتي مع فلسطين فصول عديدة... أذكر أنني عندما كنت صغيرة بكيت لأيام عدة لما شاهدته على التلفاز من صور وأخبار عن فلسطين... لسنين طويلة حملت في مخيلتي أسماء وصور الكثير من الأطفال الذين قتلوا على أيدي الإسرائيليين... وفي مرحلة من المراحل أصبت بعشق اللهجة الفلسطينية...

أدمنت على سماع الأغاني الشعبية الفلسطينية، وأخذت أركز في كلماتها، وأقارن بين الكلمات باللهجة الفلسطينية، والكلمات ذاتها باللهجة السورية، ألفظها بصوت عال وأطرب لسماعها... كبرت على فكرة "الممانعة" ونظامنا "المقاوم" الذي تحدى العدو الإسرائيلي لسنين طوال ولا يزال هذا التحدي قائماً، وغضبت بسبب الكثير من المجازر التي ارتكبها "العدو" في صبرا وشاتيلا والخيام وبنت جبيل وقانا...

ثم كانت اللحظة التي التقيت فيها ذلك الصديق في أحد المقاهي منذ عدة سنوات... كانت تفوح منه رائحة الكعك الفلسطيني الذي عجنته وخبزته يدا عمته العجوز ذات السبعين عاماً، ووقعت فوراً في سحر كلماته و"الضمة" التي يضعها في أول بعض الكلمات "سُكر.. ذُبز.. " ليتحول في غضون أيام قليلة إلى واحد من أعز أصدقائي... وليحكي لي الكثير الكثير عن ذلك "العدو"...

حكى لي الكثير عن فلسطين، عن مدينته وجبالها المزروعة بأشجار الزيتون والعنب... عن جوامعها وآثارها وتاريخها الذي يحفظه حرفاً بحرف وكأنه خلق وعاش فيها كل حياته... حكى لي كيف باع الجميع فلسطين لتتحول إلى مجرد كرة تتقاذفها الدول والمنظمات والهيئات وليتحول شعبها إلى مجرد ذريعة وشماعة تعلق عليها الدول حروبها وهزائمها... وحدثني كثيراً عن نظامنا الممانع والمقاوم والذي لم يفعل سوى المتاجرة بالقضية الفلسطينية وفقاً لمصالحه وتحالفاته، ومن ثم التغني بممانعته في المحافل والمنابر واتخاذها ذريعة ليسحق بها شعبه المنتفض المطالب بالحرية... حكى لي صديقي الكثير، وأحببت من خلاله فلسطين أكثر وأكثر..

منذ عدة أيام اتصل بي ذلك الصديق وقام بدعوتي لزيارة إحدى المدارس المليئة بالنازحين في مخيم اليرموك... "أنت مدعوة لتذوق أكلة فلسطينية "على كيفك" في المدرسة سيقوم المتطوعون بإعدادها"...

وكانت تلك المرة الأولى التي سأدخل فيها شارع مخيم اليرموك لأقع في حبه من النظرة الأولى... سوق طويل مكتظ بالمحال التجارية والمطاعم والباعة الجوالين... في أوله حاجز لم يكن يستوقف القادمين بل اكتفى بوضع بعض الأكياس الرملية والجلوس بجانبها... ورغم أصوات القذائف التي كانت تنهال من شارع ال30 على التضامن والحجر الأسود إلا أن السوق كان مزدحماً والحياة في ذلك الشارع تبعث فيك طاقة غريبة... إنه لا يشبه ازدحاماً نراه في وسط دمشق، في أسواقها التجارية... هو ازدحام غير متكلف، يضج بالرغبة في الحياة، تلك الرغبة التي لم نعرفها يوماً نحن السوريون لكننا الآن نختبرها، هي رغبة تولد من رحم الموت اليومي، فتجعلك متمسكاً بالحياة وبتفاصيلها أكثر في كل لحظة... وفي نفس الوقت لا تشعر بنفسك غريباً عن هذا المكان، لا أحد ينظر إليك ليقول لك "ماذا تفعل أنت هنا" بل على العكس، تحس بالانتماء إليه منذ اللحظة الأولى...

وتذكرت ما قرأته منذ فترة على إحدى صفحات الفيسبوك: "يعتبر المخيم من أكثر الأماكن نشاطاً في الوطن السوري 7/24 ومن أكثر الأماكن التي لا يشعر فيها أي إنسان على وجه الأرض بالغربة لأنه يحتوي الجميع ويعطي جنسيته لأي إنسان ينام فيه ليلة واحدة فقط. "

وصلنا المدرسة التي تقع في ما يسمى "شارع المدارس"... فيها ما يقارب الألف نازح من مختلف المناطق القريبة "الحجر الأسود، التضامن، نهر عيشة، حجيرة، القدم" لكنها منظمة بشكل جميل وملفت للنظر... الكثير من شباب المخيم تطوعوا للعمل فيها ونذروا أغلب وقتهم لخدمة النازحين رغم عددهم الكبير... النازحون يحتلون الصفوف، الأدراج والممرات والأطفال يتراكضون ويلعبون في كل مكان، بعضهم حافي القدمين والبعض الآخر بشعر مشعث إلا أن عيونهم جميعاً كانت حزينة، تحمل هماً لا يليق بهم وبطفولتهم. أما أهاليهم فالكثير منهم كان صامتاً، ينتظرون "الأزل" ربما، فعقارب الساعة على ما يبدو لم تعد لديها القدرة كي تتحرك نحو الأمام كي يأتي اليوم الذي سيعودون فيه إلى منازلهم أو إلى ما تبقى منها. بعضهم اختار أن يلعب الورق كي يمضي الوقت، البعض الآخر يساعد في تنظيف الغرف والممرات ومنهم من يهتم بالصغار ويحرص ألا يصيبهم أي مكروه.

أمضينا في المدرسة أكثر من ساعتين. ساعدنا المتطوعين في إعداد "المسخن الفلسطيني" وهو كما وصفه صديقي عبارة عن "عرايس الجاج مع السماق وزيت الزيتون".

"العروسة" كلمة أعادتني عشرات السنين إلى الوراء لأرى نفسي طفلة تركض مع الأطفال هنا وهناك ولا حزن يرتسم على وجهها. قمنا بتوزيع "العرايس" على الجميع ثم جلسنا معاً وتناولنا طعامنا وشربنا الشاي واستمعنا إلى الكثير من قصص المتطوعين الممتعة قبل أن نودع كل من كان في المدرسة لنخرج من المخيم.

لدى عودتنا وعندما كنا نسير في شارع اليرموك، "اصطدمنا" بمظاهرة مفاجئة. كانوا حوالي خمسين شاباً لكن أصواتهم وهتافاتهم جعلتني أعتقد أنهم أكثر من ذلك بكثير... كان عرساً بكل ما تحمله الكلمة من معنى ولم أستطع أن أصدق ما أراه أمامي: كم من الشجاعة يملكون وهم يتحدون الموت الكامن أمامهم، وورائهم، والذي يتربص بهم في كل زاوية؟ كم من الإصرار لديهم كي يستمروا بالخروج والمطالبة بحريتهم تحت وابل القذائف التي لم تنفك تنهال عليهم منذ ما يقارب الشهرين... ليست قذائف العدو الاسرائيلي وإنما قذائف ذلك النظام الممانع المقاوم الذي يدعي محاربة العدو منذ عشرات السنين... (تذكرت رسالة وصلتني من وكالة سانا للأنباء قبل يومين: "استشهاد ثلاثة فلسطينيين نتيجة القصف المدفعي الاسرائيلي على غزة"، وفي نفس اليوم كتب الصديق إياد حيآتلة على الفيسبوك: "ثلاثة شهداء فلسطينيين في غزّة برصاص إسرائيلي، وثلاثة شهداء فلسطينيين في مخيّم اليرموك برصاص إسرائيلي أيضاً")

وقفت مذهولة أحدق بهم فيما هم يبتعدون في الاتجاه المعاكس لي، رافقتني أصواتهم حتى غابوا عن ناظري ولا زالت حتى اللحظة ترن في أذني: "وجايينك جايينك... يلعن روحك جايينك"..

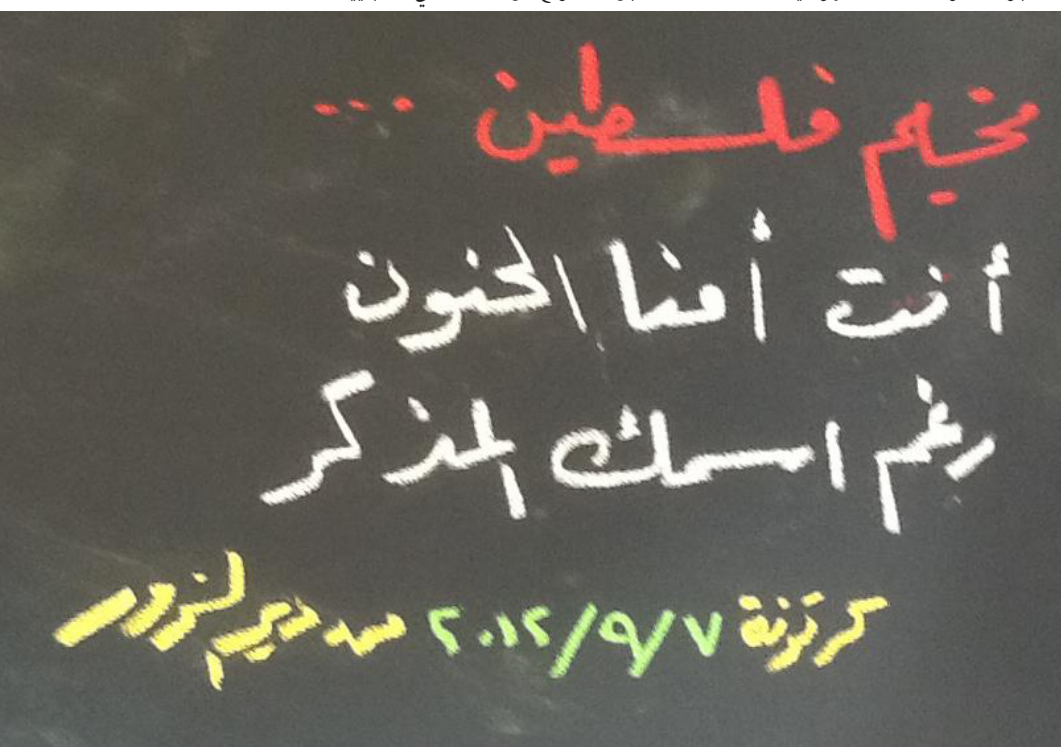

طائـرة دون طيـار

■ جمال داوود

من حيطان سراقب المحررة | منقولة من لوحة للفنان وسام الجزايرلي

حلم للجثة الصغيرة

أحلم بالطائرة..
طائرة ترفعني فوق الحرب والضغينة
طائـرة من الشـوكولا ربما والقشـدة تذوب في فمي
طائرة من الحب والقبلات وألعاب الكومبيوتر
طائرة تفتح لي عالمًا جديـدًا.. غير هذا العالم الذي يستهدفني
لا.. بالتأكيد ليست تلك الطائرة التي فوقنا
لقد أخطأ القدر مجددًا في فهمي..
كوني طفـل طموح.. لا يعني أني أريد أن أموت ميتة مختلفة
عش أيّها الطيار.. واتركني لأعيش..
لربما حلقنا سوية
"كتب الطفل الذي تتعقبه قذيفة "

درس في الطائرات والوطن

يكتب الطفل رسالته الأولى للطيار
بعد أن تعلم الكتابة
وقد ظن أن العسكري يحمي الحدود
وأهدافه خارج الورقة البيضاء النقية
التي تدعى وطن
وقد أخطأ الطفل.. وأصابت القذيفة

هويّة الطيار

أولئك الذيـن قتلتهـم.. كانت أحلامهـم تتدلى فوق أحلامك
وأطفالهم قد ولدوا من رحم الغيم.. وأعلى
وكانت لديهم قصص.. تروى
فيما أنت مجرد قاتل مأجور، برتبة ضابط طيار
وبعقل مسطح

* * *

يا لحجم الفراغ الذي في رأسك
نحتاج لطائرة لنبلغ آخره
نحن.. قتلاك
أيّها الطيار

بوصلة

نحـن مـن نصنع لـك الخبـز، ومـن نطحن لك الطحين، ومن نعلم ابنك بالمدارس
ومن نبنـي لك غرفتك، لتضاجع امرأتك بعنف..
حين ترجع من قصفنا، ثم لتنام وينام أطفالك.. بطمأنينة
نحـن نأكل مثلك الجبن مع الشـاي، ونقف على طابور المازوت، ونحتفل بجرة الغاز
ونعجن مشاكلنا اليومية بخبر التنور
نحن.. أنت أيّها الطيار.. وقد ضاقت بنا الأحوال فاسمح لنا أن نثور..

خطأ قاتل

نحن قتلاك المحليون.. الوحيدون
نحن الشجرة والنهر والبيت المسكين
وبعض المتظاهرين
وربما المسلحين.. بالصبر
نحن قتـلاك الصغار.. لـم نقصد يومًـا تعكير مزاجك
نأسـف على إزعاجك.. إن كنا دبكنا على سـقف داركم يومًا
أو كسرنا زجاج بيتك يومًا.. بأحلامنا الحادة
أو حطمنا لكم مزهرية للأزهار الميتة
أو دعسنا بالطين على بلاط سطحكم المخالف
أو إن كنـا قضينا تلك الليلة نبكي متألمين.. من الرشح أو الجوع أو القذائف
هكـذا نحن أيها الطيار.. نعبـث نمرح نثور على الحياة.. نعترض
نريد تغيير الرئيس
لكننا لا نستحق منك القتل..
نحـن بالحقيقـة أطفالـك أيّهـا الطيـار.. وقـد طالهم الذل
وقد صرخوا..

"جثث فضولية"

وتتساءل تلك الجثة التي أشرقت عند الفجر
كيف ترانا من هناك؟ بشرًا نمشي، أم أوبئة؟ أم حشرات خطيرة صغيرة، تستحق الدعس؟
ألست مثلنا؟ جثة تأجل قرار إعدامها.. إلى إشعار آخر أو ثورة أخرى أو انشقاق آخر؟
وهل تملك قرارك أيها المستعبد؟ أيها المجند؟
ألم تكـن يومًا علـى الأرض أيّهـا الطيار؟ ألن تعـود لـلأرض التـي أنجبتك؟ ألـن تجلس معنا غـدًا على قهـوة أبـو درويش، لتـروي لنا كيف تبدو بلدنا من فوق؟
"نحن الدراويـش.. جمهورك أيها الطيار العربي السوري.. ومشجعينك"
من نفخر بك.. أمام دول العالم الآخر..

* * *

"أليس لديك أقارب يقصفهم طيار آخر؟ "
"تتساءل جثة محتملة"

هوية الكاتب

وإن سألت عن هويتي أيّها الطيار
أنـا واحد مـن الذيـن يصفـون آلام الموتى من الأسفل
أحاول تصحيح خطأ الطيارين
والمسـؤولين والرؤسـاء الموهومين بأنهـم رؤساء
أحاول تحقيق الموازنة
بين الإنسان والمعدن الذي تصنع منه الطائرات
بين الكافر ورجل الدين
بين الثائر والديكتاتور
أحـاول إصـلاح خطـأ الجينـات.. أو المنصـب أو الموت
أحاول ألا أكون زرًا بيد من يظنون أنهم فوق
أحاول ألا أكون أنت أيّها الطيار..

جثث فضولية "2

قل لنا أيها الطيار..
قبل أن تصعد للسماء
هل كنت تنوي قصف نهدي دمشق؟ التي سقتك الحليب

* * *

أيّها الطيار
ماذا كنت تتدندن وأنت تكبس الزناد
للموت يا أهل الشام؟ يا أهل الراية والشهامة؟
إلـى الجحيم يـا حلب الشـهباء؟ يا بلـد المتنبي والقلاع المتينة؟
وداعًا يا حمص يا بلد الوليد؟ يا بلد الشـهيد؟ يا بلد الطيبة والنخوة
وداعـا يـا بائـع الفـول والتمـاري والشـعيبيات والفلافـل والصفيحة والكبـاب؟ ومن أين لتأكل بعدهم يا أيها الطيار؟
ومن أي الأسواق ستشري لأطفالك الملابس، إن أنت حطمت كل الأسواق وقتلت كل الشغيلة؟
هل تدري كم عاشق قتلت أيها الطيار؟
كم صبيةً؟
كم طفل يحلم ببناء سورية؟
كـم طفل يحلم أن يكون طيـارًا لينجو ربما مع أهله من جحيمك؟
قل لنا أيها الطيار.. هل بدلتك العسكرية غالية الثمن؟
أغلى من طاولة عشاء؟ لأسرة تناولت القذيفة

"مجرد أثر للقذيفة"

كانت تهمس لخطيبها.. في السـر عند سـقوط القذيفة المدوية..
طفل تعلم المشي.. والقفز من فوق سرير من الشوك..
رجل فشـل في مصارعة القـدر والذل، لكنه لم ييأس وأصر على البقاء..
تحت هدير الفقر والطائرات التي دفع ثمنها..
طبيب يداوي جراح رجل لا يعرفه، قبل أن يداوي جراحه المميتة..
مهندس بناء مشرد، ليس لديه بيت..
عجـوز لا تتوقـف عـن التكـرار.. إنـه ذنبـا أننا سكتنا..
حانوتـي طماع من أصل روسـي.. يبيع الأكفان والقذائف بالسوق السوداء..
فـلاح يقول لزوجتـه: انتظرنا المطـر.. أمطرت قنابل..
أب يعاتب ولده: شو كان بدكن بهل شغلة؟
أم توصـي ولدها: لا تاخد شـي مـن حدا غريب مامًا..
شـيخ يوصـي أتباعـه بالصـلاة وتجنـب دخول الحمام بالرجل اليمين..
ثائر يشـعر بالذنب لا لموته، بل لموت من حوله من ضعفاء ومكبلين وخائفين..
عانس تقـول لو أنها تمطر عرسـانا، ثم تتمدد على شكل هدف محتمل..
موظـف نال عـلاوة أو ترقيـة أو رشـوة، يقول: عجبكن هيك؟
ربمـا كان هنـاك أحـد الموالين لك أيهـا الطيار فالقذيفـة لا تسـتطيع التفريق بيـن الموالين للموت أو المعارضين..
شـاب يفتح الفيسـبوك.. باسم مسـتعار.. عله يخادع الخوف، أو الموت..
فالموت كان هناك معهم.. يلعب بلعب الصغار..
وأنت أيها الطيار.. وأنا..
كنا بينهم..
لكن قذيفتنا بالذات.. تأجلت أو أخطأت مسيرها..
نحن قصص تروى.. نحن الحياة تخنق..
لسنا أثرًا لقذيفة واحدة..

"هوية الطيار 2"

أجسادهم كانت ضخمة
والأرض لم تكن لتتحمل خفة دمهم
أولئك الصغار
من قتلتهم
لـم يكفيهـم رصـاص المرتزقـة ولا خطابـات الرئيس ولا تجاهل العالمين لوجودهم
كانوا بحاجة لقنبلة ضخمة
لتسكت ضحكاتهم العملاقة
وتثير دهشـة القـراء، وتربـح كل الجرائد التي نشرت الخبر
"طيار سوري يقصف أطفاله بالطائرة"

* * *

لقد غشك الزجاج
وذلك الوحش الأجنبي الذي يطير
الذي تسكن جوفه
الذي يقذف النار كالتنين
الذي دمر قريتنا
الذي قطع آخر حبل يصل دماءنا ببعضها

* * *

لا تنظر لنا في الأسفل ونحن نعاني منك
فلـو أنك لم تكن تعاني من الداخل لما قررت أن تتحول دروبنا وأخاديدنا وذكرياتك معنا
إلى أثر قذيفة

* * *

فإن باغتني الموت وأنا أكتب رسالة للطيار الذي يقصفنا
نحن الصغار..

* * *

فاعلموا أنه لم يكن أبدًا فوق
فوقنا..

* * *

وأنـي لازلـت أحـب الطائـرات التي تحلـق نحو الأعلى
ولازلت أحلم بأن أسمو.. أن أطير

* * *

لكن استخدامي لكلمة طيار..
هو مجرد خطأ بالتعبير..

شمعة من جرمانا تضامناً مع الثورة

■ ريما القاق

بين مؤيد ومعارض، متخوف من الثورة وواثق بها، تنام مدينة جرمانا بحذر شديد على أصوات قصف على جيرانها لا يتوقف.

لن تجد أحداً في الشوارع، ولن يفتح لك أبوابه أي مطعم أو محل تجاري بعد العاشرة مساءً في المدينة التي اعتادت ألا تنام.. ترقب حذر بعد سلسلة من التفجيرات أودت بحياة مدنيين أبرياء.

أسئلة جديرة بالطرح فيما يخص هذه المدينة ذات النسيج الغني أكثر من أي مكان آخر في سوريا، درزي ومسيحي، علوي وسني، كردي وأرمني. كما يقول أبناؤها دائما هي صورة مصغرة عن سوريا.

أولاً لم نأت جرمانا بنفسها عن الحراك الشعبي في سوريا؟؟ ما سر حوادث القتل والتفجير التي شهدتها مؤخراً؟ هل نجح النظام بتخويف أهلها عن طريق بث الأكاذيب وتغذية الطائفية؟؟ كيف أفشل أهالي جرمانا خطط النظام لإشعال فتيل النزاع الطائفي مراراً وتكراراً؟..

وليس آخر هذه التساؤلات ما هو رأي أبنائها في كل ما يحصل؟ وكيف تم تغييبهم بترك الدور لمجموعة من الشبيحة المسلحة بغطاء اللجان الشعبية لتصول وتجول؟..

جواب جميل وراقي اتضح دون حاجة لأي شرح بحملة عنوانها شمعة من جرمانا تضامناً مع الثورة.

قام بهذه الحملة مجموعة من الشباب والشابات الذين رفضوا الاستمرار بالصمت رغم كل القيود الخانقة. يعملون بصمت وبسرية تامة. التقيت بهم في محاولة لفك غموض ظروف هذه المدينة ذات الوضع الحرج والمعقد ولتبيان حقيقة موقف أبنائها..

لمى مهندسة من جرمانا (٣٢ عاماً) أصرت على عدم ذكر اسمها الحقيقي خوفاً على أهلها، أبدت غضبها من تحكم شبيحة مسلحين بمستقبل مدينتها.. تقول: نعيش في حالة ابتزاز دائمة، يحملوننا مسؤولية أية قطرة دم قد تراق في الأيام القادمة. على الرغم من أن نشاطي يقتصر على الفيسبوك لم يتوان بعض الناس ذوي الصلات بالمخابرات بزيارة أهلي وتهديدهم باعتقالي إن لم أتوقف.. ما سبب تضييق عائلي خانق علي. لكنني قلباً وقالباً مع الثورة ولن أسامح من منعنا عن المشاركة فيها أبداً. وأقول لأهالي الشهداء سامحونا ولن نسكت بعد اليوم سنحاول التعويض بأي شكل.

وعند سؤال إحدى السيدات المعارضات عن سبب تأخر الحراك في جرمانا أجابت: هو لم يتأخر، هناك مشاركات منذ البداية ولكن بشكل سري مثل اعتصام الشموع واعتصام السيدات وعدة مظاهرات طيارة لكن كلنا يعلم أثر أربعين عاماً من الترغيب والكذب والشحن الطائفي. والخوف على ذوي المشارك هو أكثر ما حد من هذه المشاركات بفعالية.

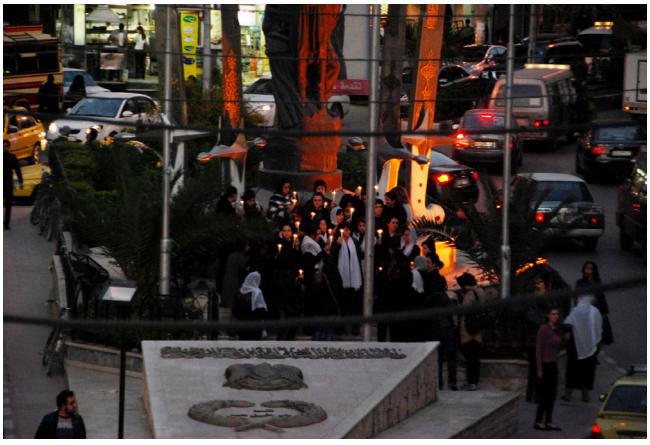

وبصراحة مطلقة وللأسف هناك مقولة تنم عن انخفاض شديد في الوعي: أن السنة سيبيدوننا إن حكموا وهنا يأتي خبث النظام في بث وتغذية هذه الأكاذيب واللعب على ورقة حمايتنا كأقلية.

كثرت هذه الأحاديث في جمعيات النساء التي تتبادل الأحاديث بأشكالها البسيطة غير المعالجة وهنا يأتي دور العقلاء وأذكر هنا بقائد الثورة السورية الكبرى بسلطان باشا الأطرش.

وعند سؤالها عن اقتراحات لحل هذه المشكلة الخطيرة أجابت: تذكير الناس بثوار منطقتهم وتعاونهم مع غيرهم من ثوار الغوطة وتذكيرهم بأصدقائهم الفعليين من المسلمين وعلاقاتهم العائلية مع أسر مسلمة ودحض كذب وافتراءات النظام.

يؤكد أحد شباب المدينة الثائرة (٢٨ عاماً) من جهته: أن جرمانا لم تكن صامتة أو على الحياد بل شهدت مجموعة من النشاطات التي لا ينكر أنها خجولة مقارنة مع ما يحدث في باقي المحافظات. أما عن السبب فيقول تهديدات الشبيحة لنا مع علمنا برعونتهم وحيازتهم للسلاح والأخطر تغطيتهم وحمايتهم من قبل الأمن. أضف إلى ذلك تدخل المشايخ للحفاظ على السلم الأهلي فقد جمعونا مع المؤيدين وطلبوا من الجهتين عدم القيام بأي مظاهر أو مسيرة ولتبق جرمانا على الحياد حقنا للدماء. وهذا ما حصل ونال رضا الأهالي الذين تملكهم الرعب على أبنائهم. قبل أن تهتز المدينة بالقتل والتفجيرات وعودة نشاط الشبيحة وفي هذه المرة لم تفلح محاولات المشايخ لردعهم ع تسليهم الكثير من الأسلحة وقيامهم بالتضييق الأمني على الناشطين الذين اضطروا إلى التخفي والعمل بسرية تامة.

بحماس شديد ونفس ثائر يصر أحد فنانى جرمانا المقيمين في دبي أن وقت الخوف قد زال إلى الأبد ولا وقت بعد اليوم للصمت والوقوف على الحياد، ومن الضروري إظهار الحقيقة لأبناء جرمانا أن الشبيحة سيجروا المدينة إلى النزاع المسلح، وسيكونوا أداة النظام لمحاربة أبناء الغوطة.

وعن دوره يقول شاركت بالعديد من الفعاليات منذ بداية الثورة إلا أن اعتقال بعض أصدقائي والضغط العائلي لإيقاف نشاطاتي والتهديدات الأمنية هما ما دفعني إلى السفر.

تلح سيدة عاملة وخريجة جامعية مشاركة في الحملة على التعتيم الكامل على هويتها، كما تقول، ليس خوفاً على نفسي وإنما على أولادي الصغار.. وتخبرنا أن المشكلة الأساسية من وجهة نظرها انتشار الشبيحة، ليأتي الضغط الاجتماعي الهائل بالدرجة الثانية. ولا ترى هذا الأمل الكبير في أي نشاط على الأرض بسبب الحملة الأمنية الشرسة في جرمانا واعتقال أي شخص يتجرأ لو بكلمة والتضييق الشديد على الشباب الذي لا تسعها الكلمات لوصفه. وتقول خوفي الأكبر على عائلتي وأطفالي في ظل هذه الأجواء المرعبة لقد استطاع النظام مع الشبيحة قمعنا وإدخال الرعب إلى حياتنا كما فعل خلال أربعين عام وأكثر.

تختلف مع الآخرين المؤمنين بضرورة التحرك الميداني فتقول: لن يرحموا أحداً وخصوصاً في جرمانا فهم عادة ما يسلطون الشبيحة على النشطاء. وهنا أؤكد على أهمية عمل نشطاء الخارج ومن جهتي أنا راضية عما قدمته للأخوة اللاجئين، فقد أعطيتهم الكثير من أغراض بيتي وما استطعت توفيره من مال وليس لي منة عليهم فهذا أقل ما يجب القيام به لمن فقد بيته ودفء عائلته. وأقول لهم: "يا خجلتنا منكم بس والله مو قادرين نعمل شي ندعيلكون ومنساعدكون ع قد ما الله بيقدرنا" أحببت أن أنقل الكلمات بلهجتها لصدقها في نقل مشاعرها مع بكائها بحرقة.

بالحديث مع مؤسسي المجموعة يؤكدون أن أشياء كثيرة تجمع هؤلاء الشباب الغاضبين، أولها حرصهم على التضامن مع الثوار ودعمهم بكل الطرق الممكنة. ومن جهة أخرى قلقهم على عائلاتهم من بطش الشبيحة وأفخاخ المتفجرات المتتالية التي يعون أن النظام من يقف خلفها في محالة لتجييش أبناء المدينة ضد جيرانهم من الغوطة.

عند سؤال معظمهم عما يقولونه لأمهات الشهداء يأتي لجواب دون تردد: أم الشهيد نحنا ولادك. كما جمعتهم كلهم دون استثناء حملات التبرع والإغاثة لكل من طرق أبوب جرمانا.

ناشطة شابة تصر على متابعة عملها الثوري رغم ما تعرضت له من مضايقات أمنية واجتماعية، وتؤكد على ورقة حماية الأقليات التي يعلب عليها النظام عن طريق التخويف والتهويل، وتقول: برأيي الشخصي من أول أيام الثورة عملنا على التسويق الاجتماعي لثورة الكرامة، وكنا نستذكر حالات القتل والتعذيب والاعتقال، وغالباً ما كانت تأتي الردود على الشكل الآتي (أي صحيح النظام عبيقتل ويسجن بس معو حق، هدول إرهابيين وإسلاميين، وبدهن يدبحونا وما بخلوا منا المخبر نحنا بالذات «الدروز»). وأنا أعتذر عن هذه الطريقة بالكلام وذكر الطوائف لكن هذا بعض ما سمعناه ولا داعي للإنكار، وأنا لا ألوم أشخاص شبعوا من الخوف من الآخر لأربعين عاماً. وعن ما قدمته للثورة تقول: قمنا بعمل إكسسوارات الثورة، (مسابح، علاقات، ركايات، أطواق، أساور، فناجين) ونقوم ببيعهم ويعود ريعهم للثورة، وقدمنا أغنية للثورة كلمات أختي وغنائي أنا وصديقتي باسم الشعوب العربية بدا حرية.. عملنا على توزيع مناشير وأغصان الزيتون.. وبالإضافة لحملات البخ.. ونظرا لعدم توفر البخاخ دائما استخدمنا فحم الأركيلة بالكتابة.. بالنسبة للنازحين نساعدهم حسب قدرتنا وأختي ممرضة تساعد بعض عائلات اللاجئين، أي نشاط قمنا ونقوم به هو أقل ما يمكن أن نقدمه للثورة، وهي أعمال متواضعة نسبة لهذه الثورة العظيمة ولما قدمته باقي المدن نحن صغار أمام ما قدمه الشهداء، ونحن جاهزون دائما لأي نشاط يخدم الثورة..

وتوجه رسالة لأهالي الشهداء «الشهداء نبض الثورة وهم أسمى من أي كلام، أنا أم كل طفل شهيد، أنا ابنة كل والد شهيد، وعهدا علينا أن نكمل طريقهم إما الموت أو الحرية»..

تؤكد صاحبة فكرة الحملة أنها الخطوة الأولى وسيتبعها الكثير من العمل والحب إن كان بحرص شديد خوفاً على نشطاء الداخل وعائلاتهم وتتمنى من الجميع أن يقدر هذه الظروف التي نمر بها المدينة وتضيف لكننا اجتمعنا وقررنا أن نتحداها ولن نسمح لأحد أن يغيبنا بعد اليوم، نحن في وقت لا يسمح لنا بإعطاء أي مبرر فسورية لن تسامحنا بعد اليوم و شكر خاص للدكتور صادق جلال العظم الذي أبدى دعمه لمجموعتنا ونشاطنا.

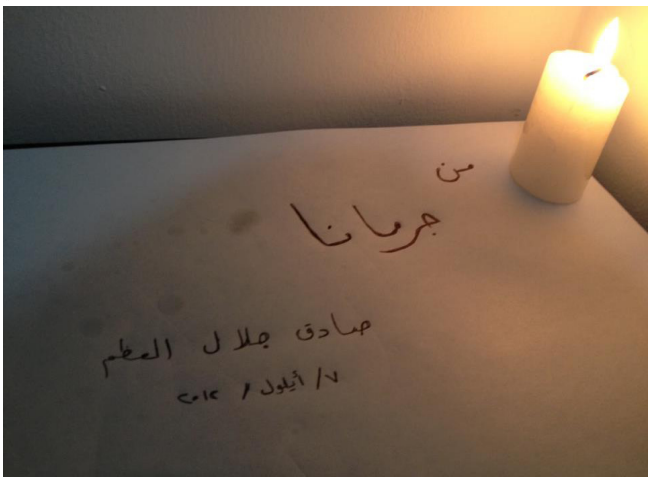

حازم صاغية: نانسي ليست كارل ماركس

■ ياسر مرزوق

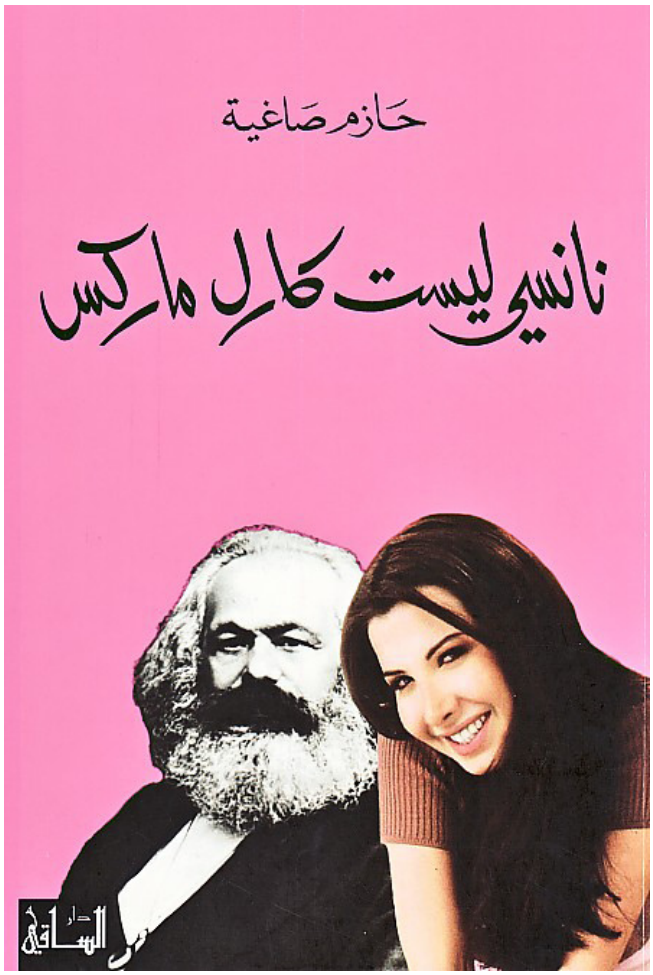

أول ما يعتري المشاهد لغلاف كتاب "حازم صاغية" الجديد "نانسي ليست كارل ماركس" الصادر عن "دار الساقي" هو شعور الصدمة. هذا الجمع بين الفنانة اللبنانية، والفيلسوف الألماني، والموقع من الكاتب والصحفي الممتاز حازم صاغية يبعث على الدهشة. يجذب العنوان حتى أولئك الذين يزدرون الثقافة. أو حتى أولئك الذين يزدرون الفنّ "الهابط" على ما يسميه النقاد الفنيون. فخليط نانسي- ماركس، يضعنا أمام جدال الثقافتين النقيضتين، إذ يفتتح في مقدمة كتابه "كتب أحدهم ذات مرة ناعيًا "الزمن العربي الرديء"، فكان مَثَله المُفحم أن "مؤخرة نانسي عجرم أصبحت أهم من مقدّمة ابن خلدون". والحال أن المقارنة الساخرة والمرّة هذه لا تخلو من وجاهة تحمل على الاستفظاع: فيا للهول حين تصير تلك المؤخرة أهم من تلك المقدّمة.. لكن، في المقابل، يا للهول حين تصبح مقدّمة ابن خلدون، أو مقدّمة كارل ماركس في نقد الاقتصاد السياسي، أهم من مؤخّرة نانسي عجرم، ومن مؤخرات مماثلة".

صاغية هنا لا يزدري أياً منهما، بل يضعهما في مصاف متصل. فلا مؤخرة نانسي عجرم أهم من مقدمة ابن خلدون، ولا مقدمة ابن خلدون أهم من مؤخرة نانسي أو سواها من المؤخرات، "فيا للهول حين تصير تلك المؤخرة أهم من تلك المقدّمة. لكن، في المقابل، يا للهول حين تصبح مقدّمة ابن خلدون، أو مقدّمة كارل ماركس في نقد الاقتصاد السياسي، أهم من مؤخّرة نانسي عجرم، ومن مؤخرات مماثلة"، على قول حازم صاغية في كتابه، هو جدال المقدمات والمؤخرات" يطرحه حازم صاغية في عنوان موفق جداً. يذكرنا هذا الجدال بقول أحدهم إن الإبداع يحتاج إلى مؤخرة، أي إلى الجلوس مطولاً للكتابة.

بدايةً أهدى صاغية كتابه إلى "مي وجويف وصالح"، دون إسنادهم إلى أسماء العائلة، ربما للتحبب والحميمية، ولمن لا يعرفهم سيطالع في الكتاب ثلاثة رثاءات مؤثرة معنونة بأسمائهم: مي غصوب، جويف سماحة، وصالح بشير، وهي رثاءات تمزج ما بين المعرفي والعاطفي، العام والخاص، دون أن تتورط في الرتابة التقليدية للرثاء أو الأرشفة التاريخية لمن يرثيهم. فالأولى هي زوجة الكاتب نفسه وهي كاتبة لبنانية ومؤسسة "دار الساقي" ناشر الكتاب، والتي رحلت في عمر الـ 54، والثاني صحفي لبناني لامع رحل في عمر الـ 58 والثالث صحفي وكاتب تونسي رحل في عمر الـ 57، وتلك المعلومات لا يوفرها الكتاب، ربما لأن المقالات نشرت مؤرخة في الجريدة وفي أجواء التعزية لكنها ليست كذلك في الكتاب.

الكتاب عبارة عن سلسلة مقالات منفصلة – متصلة بتيمة فكرية متعمّقة في اليوميات. تتناول الهوامش المشتركة، والكثيرة، بين السياسي والثقافي، حيث "تتشكل الحياة وتُحرز معناها". من نانسي عجرم، إلى عبد الحليم حافظ، عمرو دياب، ومحمد علي كلاي، ينتقل إلى بيروت والكاميرا و"ثقافة" المعارضة اللبنانية. يحضر أيضا الأصدقاء والأحبّاء، الأحياء منهم ومن غادر، كل منهم في مقال أو نص. أشخاص عرفهم الكاتب عن كثب، رفاق حياة وأفكار.. وأحياناً اختلاف. وثمة أشخاص عامّون، كالقضايا العامة، تتناولهم النصوص بخاصيّة شخصياتهم وانتماءاتهم وأدائهم. هيلاري كلينتون، وتشي غيفارا.. وحتى "ماكدونالدز" و"باربي"، كأنهم أفراد بحيوات، تتأثر، وتؤثر في من حولها.

يضيء صاغية في كتابه الذي يطوّف فيه خلال أعوام عديدة، على وقائع الثقافة والسياسة والفن. عاقداً أواصر لا تراها العين، بين أحداث وعلامات وصور، تبدو لوهلة أولى غير متآلفة أو متجانسة وظيفيا ودلاليا، أو غير ذات مكانة أو جدوى. وينتقل من الشرق إلى الغرب، وإن كانت حصة الشرق والعرب حصة الأسد. ويرصد خطوط التواصل التي تربط بين التغريب والتعريب، وبين الذكورة والأنوثة، وبين المحلية والأممية. ولعل صاغية أحد المثقفين العرب الأكثر صلابة في إصراره على ضرورة عقد التواصل الكوني بين الثقافات. ومنذ كتابه "ثقافات الخمينية" عام 1995، أو ما قبل ذلك، دعا إلى تمتين هذا التواصل، حيث كلما تطوّر الزمن تآزرت هذه العناصر وصلب عودها، وتعاظم التقارب الثقافي بين الشعوب. ولم يعد للعالم الثالث وللعرب، على وجه أخص، أي مهرب من التعايش مع الأفكار والأدوات الغربية المصدر وحضّ العقل العربي إلى الانتقال من الواقع المحلي الضيق، إلى واقع أوسع منه، يستطيع أن يتأثر به ويؤثر فيه.

مثل هذه العولمة الفكرية التي يطرحها صاغية تتطلب تبنّياً لقيم جديدة وثقافة متطورة، ونظرة واسعة لما يُحدق بنا واحتكاكا حتمياً مع تطورات تقنية واقتصادية، والخضوع لمواصفات مفروضة تتلاءم مع تحولات لا يمكن الإغضاء عنها. وعلى رغم أنه لم يفرد لموضوع هذه العولمة في كتابه الجديد إلا مقالة واحدة من خمس صفحات، إلّا أن موضوعاته جميعاً لا تعدم صلة بحبلها السُري. عولمة يستهين بها بعض المثقفين العرب، أو يتصدّون لها بما تآكل من شعاراتهم، وتهافت من مقولاتهم. وهي التي بلغت شأناً عظيماً..

ولو قرأنا لصاغية مقارنته عمرو دياب بعبد الحليم حافظ، لاكتشفنا كيف أن التطور التقني، ومفاعيل العولمة، وتطور السوق، والانتقال من الطبيعي إلى الصناعي، ومن الصّورة الأصلية إلى النسخ المتكررة، وفر لعمرو دياب ما لم يوفره لعبد الحليم حافظ، من رواج عالمي أو شبه عالمي، من خلال اتساع مساحة اللغة البصرية التي غطاها الفيديو كليب، ومن خلال تسليع الفن، أو تصنيعه لمصلحة منظمي الحفلات والممولين والمراهنين.

وعندما يتناول ظاهرة نانسي عجرم وطريقة غنائها وحركاتها، فإنه يلتفت إلى صورتها الملتبسة بين طفولة مترسّبة في نظراتها، وفتنة حسية، صنعتها أدوات التجميل الحديثة التي أضفت عليها أنوثة، تتناسب مع صورة المرأة الحديثة، لكنها تظل عُرضة للتجاذب بين ملامح الشهوانية المكتسبة، والبراءة الطفولية الموروثة.

وما يمكن التنويه به هنا، أن حازم صاغية في كل ما كتبه، تحاشى التنظير والتجريد والتعميم، فأغنى مقالاته بتقصي سير الشخصيات، وحلّل ظروفها ودوافعها وطباعها. وحدد لبعض الظاهرات الفنية أو الاجتماعية أو السياسية أزمنة نشوئها، ومراحل تطورها، وأحياناً حركة دورتها الاقتصادية، ومردودها من العائدات المالية بالأرقام المفصّلة والمجملة.

وعلى رغم أن صاغية تناول في كتابه ثمانية وثلاثين نصاً متفاوتاً في حجمه وتاريخ كتابته، إلا أن هذا التفاوت في الزمان والمكان، لم ينتقص من خلفيته الفكرية الواحدة التي تؤالف بين عديدها، وتدور حول المعاني التي تنضح بها، أو تكتمها الحياة العربية الواقفة عند الهوامش الخطرة.

أيضاً كان للفضائيات العربية نصيبها تحت عنوان "فضائيات العرب" مركزاً على "فضائية الجزيرة" لأن معظم أجزاء المقال عنها، باعتبارها الحزب السياسي الأكثر شعبية الآن في العالم العربي، ويسهب صاغية في الكلام عن الطفرة الفضائية وإيجابياتها وسلبياتها، فهي وسعت الأفق وأفادت من زميلاتها الغربية، لكن السلبيات أكثر - في رأيه - حيث: التسييس العصبي المبالغ فيه، إثارة حالة حربية أكثر منها إعلامية، وحرية التعبير تحمل دائماً بصمات الانفجار الفضائحي، الارتباط بسلوك الحكومة، العنصرية المضمرة التي تصف من يسقط منا بلقب شهيد مقابل عدم الترحم على القتيل المدني من الطرف الآخر وغير ذلك.

ومن ثمّ ختم صاغية كتابه بمقالة عن كارل ماركس بعدما عرض مقالات عديدة عن عبد الحليم حافظ وعمرو دياب وإديث بياف ومحمد علي كلاي وهيلاري كلينتون وماكدونالدز والسيجارة وأحمد فؤاد نجم وفضائيات العرب، السيجارة، ماكدونالدز، باربي، جيفارا، محمود درويش، وأمريكا، كلينتون، العدو، والمافيا.. وغيرها... هكذا كان الربط بين نانسي عجرم بطلة المقالة الأولى وكارل ماركس بطل المقالة الأخيرة من الكتاب لعبة ذكية تقصدّها صاغية في عنوانه لإضفاء المزيد من الجاذبية والدهشة والتهكّم ربما...

بتخريج بارع وذكي كهذا، يجد صاغية لنفسه ولقارئه، تأويلاً مشوّقاً لفكرة جمع مقالات متنوعة في كتابه، وهي "تتفاوت حجماً وزمناً، لكنها تُرواح كلها في الرقعة الممتدة بين السياسي والثقافي.. وتعلن بطريقتها أن المقدمات على رأسنا، وعلى رأسنا المؤخرات كذلك"، بحسب التمهيد ذاته.

الفكرة الجوهرية هي أن القارئ مدعوٌ إلى تذوق الطريقة التي يعرض فيها صاغية موضوعاته، وليس الموضوعات فقط. كيف يعلق عليها ويناقشها، وبأي نبرة. ثمة متعة يستشعرها القارئ وهو يرأقب كيفية تقليب الأفكار والظواهر على وجوهها المختلفة. كتاب صاغية، بهذا المعنى، هو ابن لحظته الثقافية والسياسية، وصاحبه يُظهر قدرة ومهارات فريدة على استقبال ما يحدث في العالم والتفاعل معه. و الكتاب إجمالاً يفتح أفقاً للحوار بين هنا وهناك، بين العرب والغرب، بين القيم التقليدية والحداثة، ويعيد النظر في بديهيات كثيرة تحكم تفكيرنا ومواقفنا. وإن تفاوتت مقالاته في الكثافة، الأرشفة، الومضات التحليلية، عدم الانضباط المنهجي، وتحيزات الكاتب غير الخفية في المعالجة، يبقى صاغية قادراً على إثارة الاهتمام ثم الإعجاب، سواء من خلال زاويته الصحفية، أو من خلال مؤلفاته المتعاقبة.

إنهم السوريون وهم يحصون مجازرهم

«جديدة عرطوز».. جميع الجثث كانت بالبيجامات

■ روزا ياسين حسن

رغم الدخان القاتم ورائحة الحرائق التي تعمّ الجو فوقنا، قال لي ابن عمي: «آنزل لنرى ما حدث». كانت قد مرّت ساعات ونحن مختبئون في بيوتنا، فئران مذعورة لا نجرؤ على الخروج. قالوا إنهم يقتلون كل من يخرج من الحارة القديمة في «جديدة عرطوز»1! وكانت ثمة بيوت تحترق حولنا منذ صباح اليوم الجمعة. رأيت سحب الدخان وشممت رائحتها.

باتجاه بساتين الزيتون كانت مجموعات من النساء والأطفال تهرول، القليل من الرجال معهم، ولحقناهم. كان يبدو أنهم يلهثون باتجاه محدد.. هناك قريباً من البساتين كانت وجهتهم، فقد وقفت سيارات السوزوكي قرب بعضها. كانت سيارات مليئة بالجثث المغطاة بحرامات وشراشف ملونة، عشرات الحرامات الملونة الهاجعة. صعدت امرأة من الراكضات إلى السوزوكي، رفعت ثوبها الطويل الأسود واندسّت بين الجثث، وصارت ترفع الحرامات عن وجوه القتلى: حرام وراء حرام، تعيده لترفع الآخر. الجثة الخامسة، التي كانت تفتح عينيها على سعتهما باتجاه السماء، كانت جثة زوجها على ما يبدو.. لم أعرف المرأة، قالوا لي إنها من عائلة «مربية»، ولكنها طوّقت الوجه الشاحب وراحت تشتم وتصرخ من دون بكاء.. كان لون وجهها قريباً من لون وجهه!

أحد شباب عائلة «بلال» كان يركض بين السوزوكيات، رأيته قادماً من بعيد مرتدياً بيجاما. ثم راح يرفع الحرام هذا ويرفع الحرام ذاك، وجهه كان شاحباً كشبح وخال تماماً من التعابير. أردت أن أناديه لألقي التحية عليه، رغم أنه لا مكان للتحية الآن، لكنه كان قد رفع حراماً آخر ثم جلس على الأرض، وراح يبكي بصوت عال، ممسكاً برأسه بين يديه. حين اقتربت منه كان «عبد القادر بلال» ممدداً هناك. لا يشبه من أعرفه أبداً، يشبه دمية محزوزة العنق، متفاجئة ومخيفة.

الأقدام شاحبة وجافة تبدو من تحت الحرامات! ورأيت ابن جيراننا، ذاك الشاب الأسمر، نسيت اسمه، وعيناه تنظران بثبات إلى فوق. قربه «فاروق البقاعي» ممدداً، رأسه مفتوحة، ودماغه خارج منها على أرض السوزوكي. يبدو أنهم ضربوه كثيراً منذ اعتقاله يوم الأربعاء قبل يومين، فقد كانت أقدامه حافية ومتورمة من تحت الشرشف الأبيض الذي يغطّيه، والبيجاما التي يرتديها ملوثة بالدم.

كان ثمة حرام أحمر يضمّ شاباً من عائلة «السماوي» يرتدي بيجاما أيضاً، وحرام آخر كان مزيناً بالورود مليئاً بنثرات الفحم. حينما رفعه أحدهم رأيت أكتاف شاب وفوقها كتلة من الفحم «المكرنشة»، كان ينبغي أن تكون رأسه! دماغه كان متفحّماً، ومازالت رائحة الشواء تعبق في الجو حولها. قالوا إنه «طارق بلال» أو ربما «خالد البقاعي» لأن الاثنين تم حرقهما كما شاع، وكان ثمة سبعة عشر شاباً قتلوا خلال اليومين السابقين من عائلة «البقاعي» وحدها. ثم أتى رجل لا أعرفه، وتعرّف على الجثة المحترقة من شحّاطتها وبيجامتها.. كان ابنه، هذا ما كان يهذي به وهو يلطم قربه.

«من بيت مين يا عمي؟»..

صاحوا وهو لا يردّ.. من بيت مين يا حج؟!!». ولم يردّ أيضاً.

جميع الجثث كانت ترتدي بيجامات! فقد كانت في بيوتها ساعة اعتقالها أو موتها. أنا أيضاً كنت أرتدي بيجاما وابن عمي كذلك. وكنا مازلنا في البيجامات حين وقفنا مذهولين بجانب المقبرة الجماعية، تلك الحفرة الطولية التي تم استحداثها بين أشجار الزيتون لتستوعب كامل الضحايا الذين فقدتهم «الجديدة» خلال يومين. كان ثمة شيخ عجوز يقول لسائل:

«لم ندفنهم في مقبرة الضيعة حتى لا يعدّوا لنا كميناً ويقتلوا المزيد منا.. سندفنهم هنا من دون تشييع.. شبعنا موت.. حاج بيكفي.. »

ونحن هناك نشهد تنزيل الجثث بجانب الجثث صرخ أحدهم من بعيد: «جثة أخرى مرمية قرب الخزان.. يالله يا شباب» فانطلقت سوزوكي مع شابين إليها.

المجزرة أمر سهل جداً.. هذا ما اكتشفته. من السهل أن ترتكب المجازر في بلادنا. حاصر المنطقة وادخل لتقتل الناس. رصاصة رصاصة.. طق طق.. وينتهي الأمر. لا يوجد عزاء، لا يوجد تشييع، لا يوجد أحد في الشوارع.. هكذا تكون المجازر، وكل ما تتركه للباقين رائحة خوف حامضة تملأ الفضاء.

هذا جزء من رواية (ن) عما حصل في «جديدة عرطوز» وهو من سكانها. لكن حينما ستسأل عنصراً من النظام عن سبب مجزرة «جديدة عرطوز» سيقول إنها بسبب ما فعله «الإرهابيون» من ضرب لمخفر الشرطة هناك. وكيف أخرج الثوار المسلحون بعض العناصر من المخفر وقتلوهم، ثم دخلوا وفجروا المخفر. كما أنهم وفي يوم الأحد 7/29 قتلوا عميداً وعنصرين من عناصره، وظلت جثته حوالي الساعتين في السيارة من دون أن يأتي أحد ليأخذها.

لكن المجزرتين اللتين وقعتا في «الجديدة» يوم الأربعاء 1 / 8 ويوم الجمعة الذي يليه، لم تحصلا بين صفوف الثوار المسلحين، كانوا قد انسحبوا من كامل المنطقة. المجزرة طالت الشباب الذين في بيوتهم، فلو كانوا مسلحين لما حدثت المجزرتان هكذا بمنتهى البساطة. قبل حوالي الأسبوعين، مثلاً، في أول يوم في رمضان بدأت مداهمة «جديدة عرطوز» بفوج 100 مع عناصر «المساكن»، ومعهم ثلاث دبابات تمركزت في شارع الجلاء وشارع غالب مربية ومنطقة البساتين. فحصلت اشتباكات قتل على إثرها اثنا عشر عنصراً من أمن النظام، كما استولى الثوار على سيارتين عسكريتين ورشاش «دوشكا».

الأمن السوري أخذ عناصره الذين قتلوا في ذلك اليوم، عمل على نزع ثيابهم العسكرية، وتركهم بالملابس الداخلية. وخلال لحظات خرجت الكاميرا من الدبابة، ثم صورت الجثث المتراكمة وذهبت مع الدبابات. فيما بعد عُرضت تلك الصور في الإعلام السوري على أنها لمجموعة من الإرهابيين قام النظام بتصفيتهم!

بعد ساعتين من الاشتباكات تم اعتقال الطبيب زياد البقاعي، والشاب يوسف غنيم، وهو نجار من سكان الجديدة عمره لا يتجاوز الثانية والعشرين. يوسف غنيم كان شاباً فاتح اللون بشعر أصهب، بعد مقتله عُرضت صوره في الإعلام السوري على أساس أنه مجاهد أفغاني أتى للجهاد في سوريا!

الأربعاء 8/1 صباحاً بدأت بوادر المجزرة الأولى.

ساد هدوء شديد في المنطقة، لم تُقطع الكهرباء كالعادة ذلك اليوم، وبقيت طائرة هليكوبتر تدور في السماء فوق «الجديدة» لأكثر من خمس ساعات، بعد أن أطلق الفوج 100 خمس قذائف على مشارف الجديدة باتجاه البساتين عند ساعات الفجر الأولى.

الساعة الثالثة بعد الظهر دخلوا «جديدة عرطوز»: آلاف العناصر وعشرات الدبابات. كانت عناصر من الفرقة الرابعة تؤازرهم، يضعون شارات بيضاء على أيديهم وخوذهم. وصار الناس يدورون على البيوت

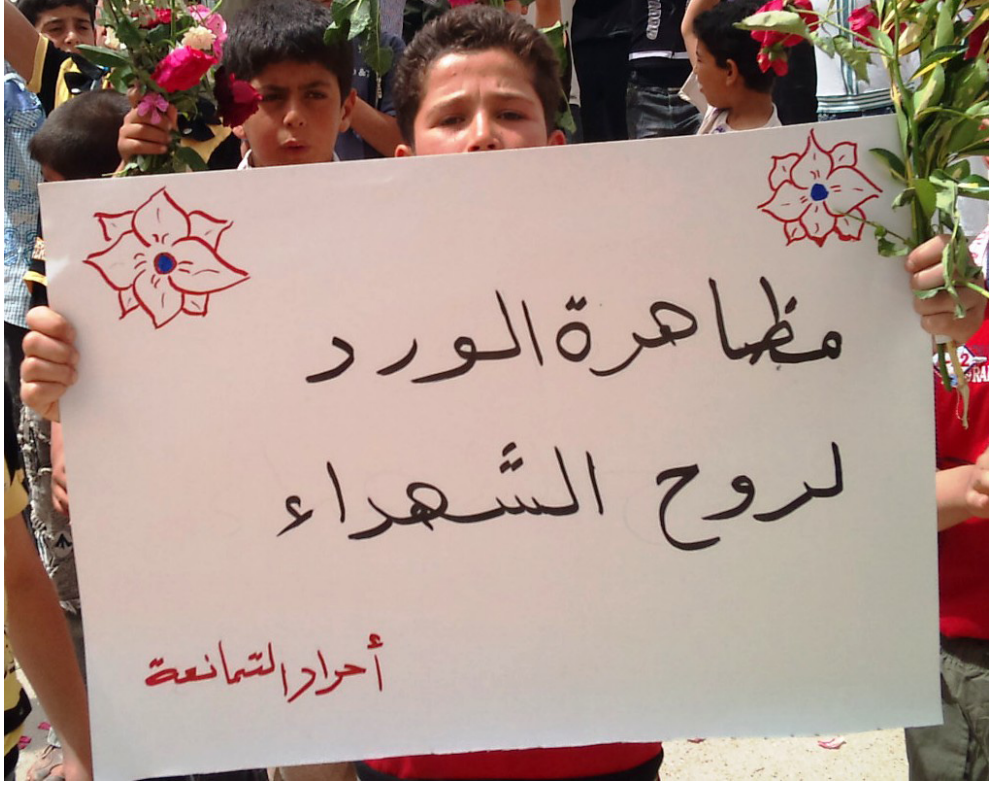

ويقولون للشباب إن الجيش يداهم المنطقة: كل من هو تحت الأربعين ليهرب.. لكن الكثير من الشباب بقوا في بيوتهم، فهم لم يفعلوا شيئاً، باستثناء مظاهرة من هنا ونشاط طفيف من هناك. وهذا ما فكرتُ فيه أيضاً: «أنا لم أفعل شيئاً يستوجب الخوف.. سأبقى في بيتي». لكنهم عادوا وقالوا لي هناك خمسة وسبعون شاباً تم اعتقالهم من الحارات المجاورة وليس لهم علاقة بشيء.. أهرب. فهربت.

كانت أصوات تكسير إقفال المحلات تصمّنا: طلقة على القفل، ثم تُكسّر الواجهات وتُنهب المحلات. جاء صديقي وأقنعني بالهرب إلى البساتين. رأيت الشباب يركضون إلى السهل، حيث أشجار الزيتون تواريهم. وكان هناك حاجز لرجال النظام في نهاية شارع الدير، وحاجز آخر في الاتجاه المقابل. كان يبدو جلياً أنهم يريدون حصر الشباب في السهل، ولكن ما من مفرّ أمامنا. قعدنا في السهل تحت الأشجار، ثم مرّ شاب ملثّم بكوفية مرقّطة على دراجة نارية، نظر إلينا ملياً وذهب. بعد أقل من عشر دقائق نزلت قذيفة علينا، وقفز التراب والحجارة في وجوهنا. هربنا بالعشرات إلى الاتجاه الآخر رغم أني لم أعد أرى بعيني، كان الغبار يعميني، وسمعت صوت إطلاق رصاص، كان يزداد سرعة واقترابا، وأحسست برفيقي يأخذني من يدي إلى اليمين ثم نعود أدراجنا إلى الزيتون، فقد كان ثمة حاجز آخر أمامنا يطلق الرصاص علينا.

عيناي تحترقان فأغمضهما، وأسمع أصوات مرور الدبابات على الزفت، أصوات قذائف بعيدة، أصوات إطلاق رصاص من هنا وهناك. كانت السيارات المصفحة والدبابات قد حاصرت البساتين، ولكني استطعت الهرب. حاولت إقناع صديقي بالهرب معي لكنه لم يقبل. قلت له: «إذا متنا فليعرف أهلنا بأننا متنا.. على الأقل». لكنه أصرّ على البقاء في البساتين.

كل من بقي هناك قتل، الكثير منهم ذبحاً بالسكاكين. «محمد الخطيب» و«عبد الرزاق بلال» وجدا مشنوقين بأسلاك الهاتف على أحد أشجار الزيتون. في هذه الأثناء، وأنا أمر قرب الساحة مهرولاً، كانت عناصر النظام تأتي بالشباب من بيوتها إلى الساحة. غالبيتهم بالبيجامات. كانوا حوالي المائة والخمسين شاباً، كما قدّرت، كوّموهم وهم مقيدو الأيدي إلى خلف ظهورهم، وراحوا يدعسون عليهم، ويزعقون صائحين: «بدكن حرية؟»... ويشتمون ويشتمون. أصواتهم الزاعقة والصمت المحيط ظلاً يلاحقانني وأنا أهرب باتجاه المجهول.

فيما بعد عرفت بأن سبعة عشر شاباً تمّ اختيارهم ليذهبوا إلى مدرسة «غالب مربية الجديدة». أخذوهم مع الدبابات والعناصر. وحين لم يستطيع عناصر النظام فتح باب المدرسة، اقتحموها بالدبابة وفتحوا ثغرة فيها. ما زالت الثغرة شاهدة حتى اليوم. هناك صفّوا الشباب على حائط المدرسة الداخلي، وضعوا كنزاتهم على رؤوسهم، فأضحوا أشبه بالمكبّلين «المطمّشين». خرج مصور من بينهم ومعه كاميرا محمولة، صوّرهم بسرعة وانسحب، لتنطلق نار الرشاشات وتدرز أجساد الشباب السبعة عشر. فقتلوا جميعاً.

لم يكتشف أهالي «جديدة عرطوز» مجزرة المدرسة إلا بعد انسحاب الجيش من المنطقة. ولم يكتشفوا القصة إلا بعد أن عرض الإعلام الرسمي صور أولادهم أحياء مصطفين على حائط المدرسة، على أساس أنهم إرهابيون مسلحون تم أسرهم بجهود الجيش (الباسل).

عدت إلى البيت ولبثت انتظر الموت. لكنهم لم يأتوا. بعد ساعات طويلة، أطول من دهر، صرت أسمع أصواتاً تدور على البيوت: «يا ناس اطلعوا تعرّفوا على شبابكم.. عاملين مجزرة.. يا ناس».

خرج الأهالي إلى البساتين ليبحثوا عن أولادهم، وكنت أهمّ بالخروج لأطمئن على رفاقي، ولكن إطلاق الرصاص راح يلعلع، فقد كانت حواجز الجيش ما تزال منصوبة تطلق النار علينا مباشرة، فمات منا من مات. على بعد أمتار قليلة مني كان ثمة رجل بنصف رأس، وقد خرج دماغه قانياً على الإسفلت. كنت أشعر بأن جسدي خارج عن إرادتي، وفي الوقت الذي كنت أظن فيه أنني سأقع فور رؤيتي لمشاهد مشابهة، تحرك جسدي مبتعداً على قدمين مهرولتين لا تأتمران بأمري.. الآن وأنا أتذكر كل ما رأيته أشعر بأني لم أعشه! إنه أشبه بكابوس فظيع.

بجانب جامع العمري القديم كان ثمة عسكري لم يستطع أن يطلق النار على الناس هكذا ببساطة. فقتلوه. رُميت جثته في قبو بناية مجاورة، ثم رمي فوقه أربعة مدنيين تم قتلهم، وأشعلت النار في الجثث الخمس. كانت رائحة الحرق تفوح في المنطقة كلها.

ولم يتم اكتشافهم حتى المغرب، فقد صارت أخبار المجزرة تتناهى إلينا. حينما تأكدنا بأن الجيش والأمن انسحبوا، خرجنا من بيوتنا.. وكنت مع الخارجين.

في تلك الليلة عثر الأهالي على عشرات الشباب مقتولين في الأقبية المهجورة. كانت «جديدة عرطوز» مفعمة برائحة حرائق وبارود وموت وخوف يهيمن على الوجوه والأرواح.

في نهاية يوم الأربعاء كان ثمة خمس وأربعون جثة تم اكتشافها قبل أن يأتي المساء. تكوّمت بجانب بعضها أرتالاً في جامع خديجة. وهناك كان صديقي ممدداً ورأسه بجانبه.. لا أعلم إن كانت قد قطعته شظية أو سكين أو.. لا أعلم. ما أعرفه أني لمحته من بعيد وهربت.

قبل أن ينتهي الليل تم اكتشاف ثماني جثث أخرى، لتصبح الحصيلة اثنين وخمسين شاباً. مكبرات الصوت تنادي على الناس أن تذهب لتتعرف على أولادها في الجامع، فالكثير من الجثث غير معروفة أو مشوّهة فليتعرف أهلها عليها من ثيابها أو أحذيتها!

اليوم لا أعرف إن كان ينبغي أن أفرح لأني نجوت وغيري قتل، أم أحزن لأن غيري قتل وأنا بقيت شاهداً على كل ما حدث! لا أعرف إن كان علي أن أفرح أم أحزن لأني حدت عن الموت الآتي بلمح البصر إلينا.

خلال الأيام القليلة الماضية «هجّ» معظم أهالي «جديدة عرطوز» من بيوتهم، وكأن المدينة القديمة خلت من ساكنيها. الخوف هو من سكن في أمكنتنا، الخوف من كل شيء حتى من الحديث عما حصل في المجزرة.. وكأن شباب الجديدة الذين سقطوا صرعى الطغاة يسقطون مرة أخرى بصمتنا.

غصّ (ع) بكلماته وصمت. ثم أشاح بوجهه بعيداً عنّا.

جديدة عرطوز هي بلدة في ريف دمشق، تقع جنوب العاصمة السورية، تحدها شمالاً معضمية الشام.

حوار مع: الشعب السوري عارف طريقه

■ شيرين الحايك

حوار مع حسين خزام (ناشط من مصياف)، وعلاء خنجر (ناشط من الجولان السوري المحتل) من فريق "الشعب السوري عارف طريقه"، وهي أجوبتنا على الأسئلة طرحتها علينا جريدة السفير، في معرض مقال يرصد الفن في الثورة السورية

| | هل تتظاهرون في الشارع أيضا؟ وان لم يكن كذلك، لماذا اخترتم أن تعبروا بالفن وليس بالنزول إلى الشارع ؟

| | علاء خنجر: حسنا، أنا لا أعيش داخل سوريا ويا ريتني كنت فلم أكن لأسأل هذا السؤال، فمن البديهي أنني سأنزل للتظاهر هذا كوني لا أرى ما هو أجدى في هذه المرحلة من ملئ الشوارع متظاهرين في المستوى الأول، بنفس الوقت التظاهر لا يمنعني من إنتاج الفن بل بالعكس ستكون مظاهرة واحدة ضمن شكل التظاهر الحالي في جميع مناطق سوريا كافية كي تستخلص عدة أعمال فنية لذا فلا أجد للسؤال الثاني مكانا كون النزول للشارع والتعبير بالفن لا يتناقضان بل العكس فالعمل الفني النابع من تماس مباشر بالحدث اليومي في الشارع لا بد أن يكون أصدق وأقوى في تعبيره عن الحدث فكم بالحري لو كانت هذه التجربة على تماس بالموت والحرية، وكوني أعيش في الجزء المحتل من سوريا فأنا أحاول الاقتراب قدر المستطاع من الحدث طبعا مع فارق بالغ الأهمية وهو رصاصة الشبيح التي لا يمكنها أن تطالني عبر شاشة الانترنت لذا فالتجربة الشعورية مختلفة تماما، هنا أشعر بصغر حجمي أمام هؤلاء الأبطال. من جهة ثانية وبشكل شخصي أجد أن الإنتاج الفني في هذه المرحلة أي في مرحلة حركة تاريخية حادة كالثورات أو كحرب أو تغيير اجتماعي حاد يكون الإنتاج الفني مختلفا بالضرورة أو لأعبر عن وجهة نظري بشكل أدق أجد أن عليه أن يكون مختلفا - وأقصد بـ"عليه" أن يكون قرارا واعيا - بالتعاطي مع مواضيعه فالمرحلة تحتم تكريس الفن لخدمه الهدف الذي يؤمن به الفنان الذي هو جزء من هذا الحراك ومن هنا وجدت نفسي أقترب أكثر إلى الملصق والغرافيك كتعويض عن العمل الفني لسبب سرعة وصول الملصق وقدرته على القول السريع بالإضافة لسهولة التحريض وطرح المقولة من خلال التصميم. هذا لا يتنافى طبعا مع إنتاج عمل فني لكن لا بد له أن يكون على علاقة مباشرة بالهدف.

| | حسين خزام: لا قدرة لي للتظاهر في الشارع بسبب وجودي خارج سوريا لكني على يقين أنني لو كنت في سوريا لكنت الآن إما شهيدا أو معتقلا أعتقد أن لا شيء يعادل التظاهر "فيزيائيا" في الشوارع والأمكنة التي طالما كانت رموزا للقمع والإسكات وتكميم الأفواه لا بل حتى العيون، لأن التحدي يكون مباشرا وحسيا، لكن التظاهر عموما كفعل إظهار ونقيض لأي إخفاء أو انخفاء فأشكاله عديدة (الوجود نفسه هو "كشف لإخفاء" كما كان يقول هايدجر)، انه في الجوهر عملية "تعبير حر" وفعل "إخراج" وهنا يلتقي مع الأشكال الفنية كافة.

| | ما الفرق بينهم، وأيهما أقوى؟ وكيف يؤثر الفن على الشارع ويتفاعل معه ؟ ومن يؤثر بالآخر أولا؟

| | علاء خنجر: بالطبع الفرق شاسع بين التظاهر في هذه الظروف وتصميم ملصق أو فيديو نحن هنا لا نتحدث عن تظاهرة من أجل توجيه رسالة أو رفع شعار أو احتجاج على ممارسة ما بل هي انتفاضة شعب يعيش تحت وطأة آلة قمع مخيفة تواجهه بالموت فلا يمكن مقارنتها بإنتاج عمل فني مهما ارتقى الفن في مستوياته فمن الصعب لو لم نقل مستحيلا أن يصل مستوى هؤلاء الذين يرفعون صوتهم أمام البنادق "الموت ولا المذلة". مرسمي محمي بأربعة جدران أما هذا المتظاهر فمحمي فقط بشجاعته، بقدرته على مصارحة الموت لأجل حرية غيره، هذه المعادلة يمكن أن يعبر عنها الفن بشكل ما لكن من المحال أن يصلها، بالنهاية المعادلة بين التعبير الفني والتظاهر ليست على حد مقارنة بل هي متكافئة فالفن لا يمكن أن يحيى بعيدا عن الشارع أو ربما قد يحيى ويكون مشهورا أيضا هذا صحيح لكن لا أجد فنا حقيقيا هو شيء من البصري ممزوج بالمال والموضة، هذا رأيي طبعا الذي يخالفني عليه الكثيرون لكن العلاقة المتكافئة بين الشارع والشكل الفني هي التي تقود لتأثر كل طرف بالآخر بالتالي تقود لتطور المجتمع بكليته. يمكن هنا طرح مثال مهم في علاقة الفن والفنان بالمجتمع هذا المثال ليس بالبعيد وقد كان في الثورة الفلسطينية، ولا يمكن ألا نتذكر هاني جوهرية المصور الشهيد وغيره طبعا كسلافة جاد الله ومطيع عمر وغيرهم. كان صناع السينما في "وحدة أفلام فلسطين" (١٩٦٨) مقاتلين حقيقيين كان الطاقم فدائيا بالمعنى الحرفي للكلمة كانوا يخرجون للعملية الفدائية الكاميرا والبندقية جنبا إلى جنب، طبعا الفارق مع الانتفاضة السورية هو البندقية. هذا النوع من الإنتاج الفني الذي هو على تماس مباشر بالشارع وبالعمل الثوري هو القادر على بلورة شكل فني متناسب مع المجتمع. الكلمة الآن للانتفاضة وكما كان شعار الثورة الفلسطينية في ستينات وسبعينيات القرن الماضي: لا صوت يعلو صوت البندقية فاليوم في الانتفاضة السورية لا صوت يعلو صوت الانتفاضة. ودور الفن يأتي لإذكاء حماس الجماهير وتشجيعها على المضي والصمود والكفاح ومدها بثقافة سياسية لمواصلة الكفاح كذلك تحريض المترددين ومدهم بالثقة للالتحاق بالانتفاضة. الانتفاضة هي من تعطي الفن مقاييسه الصحيحة مثلما نفخت فيه النفس القوي للظهور والوقوف على مضامينه الحقيقية والتي ستتضح أكثر مستقبلا وكما أن التظاهر في الشارع بكافة أشكاله السلمية إلى حد العصيان المدني هو أقوى من جيش مدجج بالسلاح. كذلك العمل الفني عليه أن يكون سلاحا في يد المتظاهرين ولا أجد عبارة أدق من التي صاغها المخرج الفرنسي جان لوك غودار عن السينما: "الكاميرا التي تطلق 24 لقطة (أو ربما طلقة) في الثانية" معتبرا الفيلم السينمائي يمكن له أن يكون سلاحا فاعلا وأنا بدوري أجد أن على الفن أن يكون طلقة في يد المنتفضين في الشارع يستخدمونها ليعلو صوتهم أكثر ويستخدمونها ليسمعوا صوتهم كذلك.

| | حسين خزام: لن أحدد بداية التأثير كما اختار أرسطو أن يفعل مثلا في سؤال الدجاجة والبيضة، لأنني ببساطة أعتقد أنها عملية ديالكتيك، فهي فاعلة ومنفعلة في الوقت نفسه. سؤالي الكبير منذ أن بدأت الثورة كان عن "الحتمية"، فهل هناك هدف ما (ما يجب أن يكون) هو من يقوم بالتأثير على اختياراتي وأعمالي، أم أنه انطلاق حر، من مبدأ ما، ومفتوح الاحتمالات؟ شغلني السؤال كثيرا وما زال يشغلني، ولم أرد في أي لحظة أن أشبه الواقعية الستالينية التي كانت تفترض وجود نظرية ناجزة وتامة لما يجب أن يكون عليه المجتمع، وسخرت الفن الذي أصبح "مجرد أداة" للتعبير عن هذا الهدف

الحتمي، أي أن الفن أصبح يقسر الواقع. إن كانت هذه الثورة هي لأجل الحرية، فإن ميكانيزماتها وأدواتها هي بالدرجة الأولى "الحرية نفسها". مبدأي في الفن، تحديده نفي: ضد الاستبداد، أي استبداد. الفن بالنسبة لي لا يمكن إلا أن يكون حرا وتحرريا ينحاز إلى الجمهور والمجال العام كتعبير عنهم وكتعبير عن المستقبل، الفن نبوءة. الفن بهذا ضد الاستبداد مرتين، لأن الاستبداد هو ضد كل تعبير بالمطلق، ولأن الاستبداد ضد المجال العام أي تبادل التعبير داخل الجماعات البشرية. لا أخفي تأثري بالرومانسية ونظرتها للذات صانعة العالم والفن لأجل الفن، لكن الثورة قلبت كثيرا من مفاهيمي وجعلتني أدرك أن "الحرية" هي مطلب الذات والموضوع معا ولا تنفصلان.

| ما هي الأشياء التي تهمكم أن تصل للناس ؟ وهل فنكم موجه للناس في الداخل أم أن همكم يتركز على نظرة العالم ككل ؟ وهل تستطيعون التأثير على الرأي العام العالمي بالفن ؟ هل خلقت الثورة فيكم شيئا جديداً وكيف ساهمت بالإبداع وتطور الحركة الفنية برأيكم؟

| | علاء خنجر: شخصيا أجد أنني في هذه المرحلة مهتم بالشارع السوري أكثر من الرأي العالمي، القضية السورية هي قضية السوريين بالدرجة الأولى، همي في أن يكون العمل الفني داعما بقدر المستطاع للشارع معبرا عنه ومقدما له ما يحتاج من وسائل للنضال وهذا بالضرورة سيصل الرأي العالمي. الفن هو لغة بصرية يفهما أي شخص ولو تحدث العمل الفني عن الانتفاضة ببساطة وعمق فسيفهمه الأجنبي. قد يكون هنالك فرق في التعاطي مع نوعية الجمهور الذي أود أن أطرح أمامه عملي الفني وهذا تفصيل صغير إذا كنا نتحدث عن عملية إنتاج فن أعم في هذه المرحلة، غير أنني لا أجد أن من مهمة الفن الخوض في هذا السؤال بل إن هذا السؤال قد يكون معيقا للعمل الفني. أعتقد بأن الفن يمكنه أن يؤثر بالرأي العالمي، لكن دعينا نعيد صياغة السؤال بشكل أدق: ما الذي نريده من الرأي العالمي حتى نؤثر به؟ بالدرجة الأولى حاليا نحن نريد من العالم الالتفات لانتفاضة الشعب السوري، وهل يا ترى باستطاعة عمل فني أيا كان حجمه لفت الانتباه أكثر من لقطات فيديو لثلاثة شبان يحاولون تحت زخ الرصاص سحب جثة صديقهم من منتصف الطريق عبر مد قضيب حديد وسحبه نحوهم وهم يصرخون "عميتنفس بعدو عايش" فيقتل الذي يحاول سحب الجثة وتستقر رصاصة أخرى في المصور ليستشهد هو أيضا. لا أعتقد أن عملاً فنياً أيا كان أبلغ وأكثر قدرة على التأثير مما نشاهده في اللقطات المصورة التي تصلنا بكميات على اليوتيوب.

| | حسين خزام: كان من المهم دائما كما أسلفت سابقاً، التعبير عن الجمهور والأفق، لذلك كانت الأعمال تتوزع بين تعبير مباشر عن أحداث ووقائع يومية وبين رسم آفاق. من جمالية الأفق هو أنك تراه لكنك لا تستطيع أبدا الوصول إليه، فهو بهذا لا يعتبر حدودا بل انفتاحا، كما أن الأفق هو فصل بين عالمين الأول هو أرضي طبيعي والآخر هو سمائي ميتافيزيقي، ولذلك أحيانا كنت أصرف يومين كاملين في تصميم كلمة حرية أو ثورة لأنني أردت التعبير بها عن "المطلق" الذي هو بالمفهوم الهيجلي نقطة الجمع بين العالمين. تلك النقطة الجامعة وجدتها في الثورة السورية والمتظاهرين الأسطوريين، الذين خرجوا في العالم الطبيعي غير آبهين بالموت الذي كان استمرارية وليس قطعا. إذا فجأة وجدت نفسي أمام "المطلق" يدعوني لأعبر عنه. ولأن الحرية هي قضية إنسانية بامتياز، كان طبيعيا جدا الإستفادة من كل التراث العالمي وثورات الإنسان في كل مكان حتى في الأسطورة، فتجدون تصاميم هي عبارة عن تعديلات على لوحات من عصر النهضة، لوحات أخرى متأثرة بفنون الخط الإيرانية، لوحات أخرى تقتبس من أعمال كبار التجريديين والانطباعيين والواقعيين وأخرى تستلهم أساليب مصممي الغرافيك الكبار.

| نلاحظ عدم وجود إمضاء واضح لأسماكم، وكل إنسان يحب أن يرى إمضائه تحت أعماله، أليس لديكم حلم شهرة ؟ خصوصا أن أعمالكم تنتشر بكثرة !

| | علاء خنجر: لا أعتقد أن أحد لا يحب الشهرة فضلا عن أهمية انتشار العمل واتساع رقعة مشاهدته بالنسبة للفنان، لكن بربك هل هذا وقت الشهرة أو البحث عنها، من يبحث عن الشهرة في هذه الفترة لا يمكن وصفه سوى بالمتاجر في تضحيات الشعب. نحن ننتج للثورة باسم الثورة. هذا غير أن عملية الإنتاج مختلفة جدا فهي تتم غالبا بشكل جماعي وهنالك من لا علاقة لهم بالفن يشتركون بالإنتاج من وضع الفكرة حتى إخراجها النهائي وهذه الطريقة بغاية الأهمية وبالنسبة لي شخصيا أجد في طريقة العمل هذه متعة تغنيني عن زيف الشهرة. إن من أهم إفرازات الثورات العربية أو ما نرى منها على الأقل هي القدرة على تغيير بعض الأفكار النمطية كالزعامات والنخبوية حتى بات الشارع أخيرا مصدر الشرعية والمحرك الأساس بما فيه من كافة شرائح الشعب.

| | حسين خزام: من ناحية أنا أعد نفسي طارئ على "الفن"، أقصد الفن الأكاديمي، ولا أميل إلى العمل بالفن مقابل أجر، وطبعا لا يهمني أن يكون لي اسم فيه، فإذا كان الفن كما أسلفت تعبير حر فأنا ضد كل من يقيم حدودا له (مثلا في الشركات أو الورشات الخاصة عندما يكون عليك أن تقوم بتصميم أو عمل فني لخدمة حملة إعلانية ما..).

ومن ناحية أخرى، لدي مشكلة مع مفهوم الشهرة، فإذا كانت الأعمال لاقت نجاحا في الثورة وتفاعلت معها وأثرت وتأثرت بها وستستمر بذلك بعد سقوط النظام (لأن الثورة الحقيقة ستبدأ مع سقوطه)، فأي معنى لشهرة صاحب الأعمال ؟ إن كان المبدأ هو الحرية نفسها فأنا لا أريد أن تتقيد الأعمال بمعرفة وشهرة صاحبها، فليتكلم العمل عن نفسه بحرية وليس باسم صاحبه المشهور أو المغمور.. أقدر دائما نموذج "الجندي المجهول" لأنه أولا: الأكثر حضورا ولو أن لا اسم له، ولأنه ثانيا: "كل" جندي و"أي" جندي في نفس الوقت. أعمالي كلها موقعة وستوقع باسم "الشعب السوري عارف طريقه" هذا الشعب، هو "أي" سوري و"كل" سوري الآن وفي المستقبل. معركتي أيضا، هي ضد جماعة "جميع الحقوق محفوظة"، فنحن ليس عندنا ثقافة الكوبي ليفت، والتي تسمح لك بالاقتباس والاستلهام من أعمال الفنانين الآخرين والتعديل عليها مع ذكر المصدر، وكأن العمل الفني ليس عمل موجه للإنسانية كلها وملك للجميع (تخيلوا كل مرة نريد أن نقرأ محمود درويش علينا أن تشتري ديوان محمود درويش لأن جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة محمود درويش أو لمحمود درويش نفسه). في هذا السياق أدعو الجميع إلى أخذ كل أعمالنا والتعديل والتبديل والخلق إذا أمكن.. لنغذي هذا الديالكتيك المتواصل بين الذوات الفنية الخلاقة.

معرض الأعمال على فليكر http:// /www. flickr. com/photos/3aref

المصدر: مدونة الشعب السوري عارف طريقه

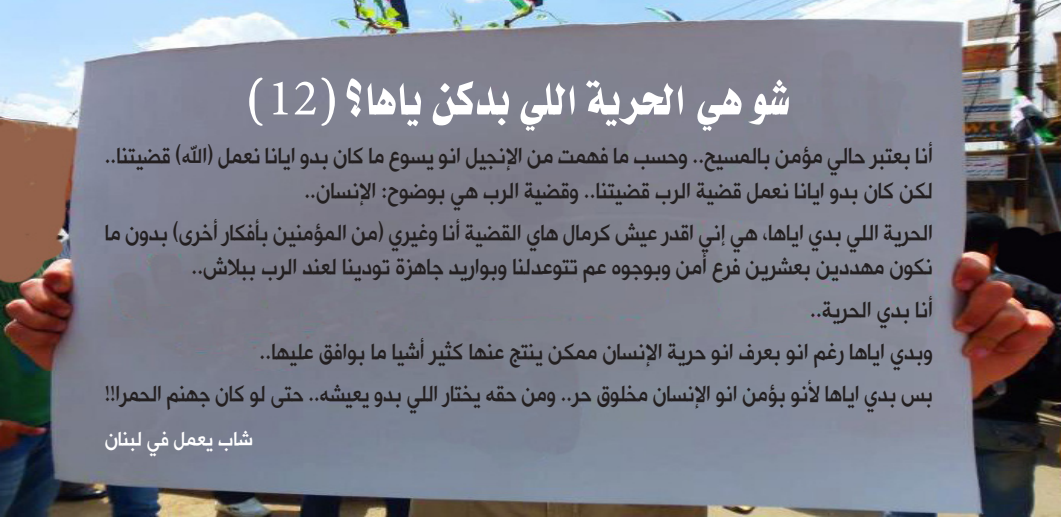

شام داود

منذ عام كان أمل الحرية ينمو في صدر غياث.. كان حلم الإنسان يكبر في عينيه.. كانت وردة داريا تعيش..
منـذ عام، كان غيـاث حرا يضحك ويترقـب عمرا بأكمله من الحرية.. عاد أيلول الحزين مرة أخرى.. يحيى لم يعد بعد.. غياث رحل بقيود وعاد في كفن..
غـدا 6 أيلول.. اعتقال يحيى الشـربجي معن الشـربجي ووردة غياث مطر.. عاشت الوردة.. ومات غياث..
حلمي بسـوريا الحرة.. حديقة عامة مليانة ورود.. مليانة ياسمين.. وعلى بابها "حديقة الشهيد غياث مطر"
كـون بخيـر مطرح ما أنتـه.. وصليلنا.. صلي لسـوريا يا غياث.. الوردة بعدها.. والثورة مستمرة

عبد سلية

الشـعب السـوري عندما بدأ يشـعر بتهام رجولتـه.. وجد أمامـه نظاما قد بلغ سـن اليـأس ومعارضة لم تبلغ سـن البلوغ.. وكان عليه أن يتحمل جنون الأول وحماقة الثاني!!

إياد عماشة

حسن نصر اللّه ع الميادين.. "لا يستطيع أقوى سلاح جو في العالم تدمير أي مقاومة شعبية"..
بتمنى صاحبك يكون عم يسمعك..

وضاح جارة

لنتخلص منك ستكفيك رصاصة، لنتخلص من رواسب حكمك وحكم أبوك سـنكون بحاجـة إلى الكثير من الـورود والصبر.. نهايتـك بدايـة لمرحلة طويلة، سـنحتاج طاقـات الجميع دون استثناء حتى من كانوا عبيدك بعد أن يرضى أهل الشهداء.

علا ملص

البعض يحتفظ (بشراسـة) بأخلاقيات النظام الذي يسقطه!!

أيهم باريش

إذا فعلاً القنوات السـورية رح تبث على الهوت بيرد؟ شلون منا نميز بين بلي عبشوفا وبلي عبيتفرج على السكس؟؟

جمال داوود

وفـي مبـاراة ودية.. تغلب فريـق البحرين علـى فريق البحريـن ليتأهل فريـق البحرين إلـى دور الثاني ويودع فريق البحرين البطولة.. «نشرة أخبار رياضية إيرانية»

سعد حاجو

الثّـورة السـّوريّة فيهـا كلّ الأمّـل والكثيـر الكثيـر من الشـُّهداء ومئات الآلاف من اللاجئين والجرحى والمُعتقلين والمُهجَّريـن وقليل من الأسـى، وأيضا وحتمـا ككل ثورة فيهـا ثلة مـن الانتهازيـّين والوصوليّـين والمُتعصّبين واليائسين والمُتـّعربشين. أمّـا النّـظام فكله قتَلة..

إياد حياتلة

ثلاثة شـهداء فلسـطينيين في غزّة برصاص إسـرائيلي.. وثلاثة شهداء فلسطينيين في مخيّم اليرموك برصاص إسرائيلي أيضا..

علي منصور

كراهة للشهيد.. لازم نضل نحب نعيش..

كوليت بهنا

القصـف على يميني.. باب الدار على يسـاري.. أما الريح التـي تغويني بالرحيل.. أحبسـها كل ليل في حقيبة من تنك.. وأسكن إلى قلبي.. أبكي على وطن ينزف وطن..

زينة شهلا

حديث مسائي على أنغام القذائف:
أنا: مبارح كل الليل.. أسمع صوتا وقت تطلع وعد للعشرين، شي خاف وشي أتمنى تجي عليي.. وبعدين أسمع صوتا عم تنزل
هو: لا مو للعشرين للعشرة وبتنزل فورا..
أنا: عندي للعشرين.. من هون للغوطة..
هو: أنتي سريعة بالعد..

منهل باريش

غياث مطر شمعة لم تطفئها ريح القاتل؛ السلام لروحك حيا فينا وخالدا..

زكية سردست

التسـتر أو غض الطرف أو إهمـال أو الخوف من مواجهة واقـع أن هنـاك أمـراض جسـدية واجتماعية ونفسـية تسـتوجب المعالجة.. لن يزيد إلا من اسـتفحالها وركوب البعـض لأمواجهـا المـدرة للأربـاح، مجابهـة واقـع أن المجتمع السـوري سـيخرج من أزمته بأمـراض عدة أمر لاشـك فيه.. وأول هذه الأمراض هـي الحقد الطائفي.. جرائم الاغتصاب التي مسـت الذكور والإناث والأطفال.. التشـوهات الجسـدية والإعاقـات.. الأيتام.. كبار السـن دون معيل خصوصا من النسـاء.. انعدام المأوى للعائلات والأفراد.. التشرد والتسول وكل واحده مما ذكر تحتاج إلى انقلاب في مفاهيمنا عن الحياة والإنسان والمجتمع..

عبد الباسط فهد

الأمس.. إن تختلـف معي في الرأي فهذا أمر طبيعي.. أن ترفـض ما أفعل فهذا حقك.. ولكن أن لا يؤثر فيك موتى بمنتهى الظلم والوحشـية فعـذرا لابد أن تنتبه لأنك تفقد إنسانيتك

ياسين حاج صالح

أحترم النظام السوري أكثر من المبرراتية تبعو، وأحترم المبرراتيـة السـافرين أكثر مـن المبرراتيـة المحجبين، والأكثر جـدراة بالاحتقار برأيي هم اللي يخجلوا يدافعوا عن النظام صراحة، فيفضلوا يطعنوا بالثورة، في عينات سـورية وعربية لهالسـلوك، شـي بنكهة ممانعة، وشي بنكهة إنسانية، وشي بنكهة يسارية، وشي سلطة..

مهند دبا

يعني وآخرتها!!! يا رح تخلص الذخيره شيتك.. يا رح يخلص الشعب... والشعب ما رح يخلص.. شوف شو بدك تعمل

كريم الأفنان

يـا حرام يا سـوريا، فعـلاً الثـورة تأخرت 40عـام، زمان كان سـفيرنا بالأمم المتحدة فارس بيـك الخوري، وهلا بشار الجعفري.. وزمان كان سفراؤنا الشاعر نزار قباني والشاعر عمر أبو ريشة، وهلأ الشبيحة علي عبد الكريم وسـامي الخيمي ويوسف الأحمد.. وزمان كانت السفارات السـورية تمثل كل البلد، لكنها اليوم تمثل الأسـد.. هل من شتيمة للزمان وللتاريخ أكبر من هؤلاء الشبيحة؟..

خلود زغير

هناك شـهداء من عهد الأب.. من قمع وعسف الثمانينات والتسـعينات تأجّـل استشـهادهم لليوم.. عباس عباس واحد منهم.. سـرق معتقل تدمر من جسـده وروحه 15 عاما، وبعدها المرض ليغـادر صباح هذا اليوم الخريفي قبل أن نهديه خبر تحرير سوريا..

عهد زرزور

ثورتنـا كانت حلـم يوماً مـا.. لا تسـّخفوا أي حلم يأتي بعده، لأنه سيتحقق!

رولا الركبي

تغيرات سـيكولوجية مرافقة للثورة: كنـا نلتفت بإعجاب عند مرور شـاب مفتـول العضلات أو صبية مغندرة وتوب فاشـن، اليوم بحس ضغطي عم يرتفع وقت بشـوفهم! هناك صورة نمطية للشيوخ والشبيحة باتت ملتصقة بهم رغم أن التعميم لا يجوز وسطحي على الأغلب لكنه جزء من واقع حالنا!

مشـان اللّه يا أمـي.. حاج تسـألـيني كيفك.. منيحة.. بـس مافيني قلك أنو ما حـدا بدق باب بيتـي.. وأنو كل وين ووين ليرن جـرس البـاب.. ما فيني قلك أنو بفرح لما بشـوف سـطل الزبالة تبع جارتي.. هيك بس بعرف أنها موجودة..

عايشة بس مضيعة ريحتك.. بتتذكري المرهـم اللـي كنـت أدهنلـك ضهرك وتعلق ريحتـو عإيديي؟؟ هلأ كل مابدي أستحضر ريحتك بفتحو وبصير شمو.. آخ يا أمي.. من وقت بطلتي تحطي راسـك عرجليي وعد الشـيبات براسـك.. صرت خربط بالعد..

عم يقولو العيد يا إمي صار عالبواب.. طيب كيف؟ ولا ضل في بواب ولا ضل في بيوت.. وإذا دق مين بدو يفتحلو؟؟..

عم بتشـقف يا أمي.. مشـتهية شم ريحـة معمـول العيد.. مشـتهية يرجع الزمـن لـورا.. وأصحى عصـلاة الصبح لاقيكي شـاطفة البيت ومجهزة القهوة المـرة وطاولة الحلو.. ومـا تخلينا نمد إيدنـا لحتى يرجـع البابا مـن الصلاة.. بـدي قلك سـر.. كنـت أنا اللي أسـرق ملبـس بيـض الحمـام وآكلـو!! وبدي أعترفلك كمان أنو كنت أستصعب بوسة إيـد البابا لما عايـدو.. أنت علمتيني ما وطي راسي مهما كان السبب.. مشـتاقة يا أمي أسمع الأدان: لبيك اللهم لبيك.. طالـع مـن كـذا جامـع. جامـع الأنوار وجامع الجـوري وجامع الفرقان.. وصوت الفتيـش اللي كنـت أنزعج منـو.. هلأ صارت الفتيشـة كبيرة كتيـر.. وصارت تمـوت بدال ما تضـوي وتفرح.. وصوت المرجوحـة.. وهنـي الولاد مكوشـين حواليا وعم يغنو: يآحـج محمد.. يويا.. عيرني حصانك.. يويا.. تا شدو وأركب.. يويا.. وألحق اسـكندر.. يويا.. بس هلأ المراجيح صارت مشانق..

مشـتاقة لأبـو كرمـو.. وعربايتـو الخضـرا.. يـا ترى وينـو وبـأي أرض.. شـباك غرفتنـا أنـا والبنـات اللي كنت كاتبة عليه: بقولو الحب بيقتل الوقت.. كان يمرر كل الأصـوات والألوان.. بس هـلأ علبة الكبريـت اللي عايشـة فيها مابتسـمعني إلا صـوت المكيف.. بضل يطـن بإدني ليل ونهـار.. ولأني بعلبة كبريـت.. بصير شـعل عـود ورا عود.. عود برجعنـي لعندك.. وعـود برجعني عالحارة.. عود برجعني صغيرة عم تبكي بدهـا تياب جديدة للعيـد.. وعود برجع الحياة والـولاد والزحمـة.. وعود بعبي الطاولة حلويات العيد.. وهيك لحى آخر عود يرجعني عالعلبـة.. ومع أنو بقولو الوقت بيقتل الحـب.. بس عم حس أنو عم يقتلني.. ويحيي الحب فيني.

ايمان جانسيز

عن الشعب الكُردي في سوريا

■ بلال سلامة

يعيش الشعب الكُردي في المنطقة المحاذية لجبال زاكروس وجبال طوروس في شمال الشرق الأوسط على أرض أطلقوا عليها اسم كردستان، وهي عبارة عن أجزاء من شمال شرق العراق وشمال غرب إيران وشمال شرق سوريا وجنوب شرق تركيا. قدرت الإحصاءات عام 2011 أن عدد الأكراد هو 26، 712، 000 نسمة، تتوزع كالآتي: 56٪ في تركيا، و16٪ في إيران، و15٪ في العراق، و6٪ في سوريا، والباقون (7٪) يتوزعون في أنحاء العالم المختلفة.

أما بالنسبة لتسمية الأكراد فهناك خلاف في اللفظ الذي يطلق على الشعب الكردي في اللغة العربية: فنجده في الكتب العربية القديمة (الكُرد)، ثم تفادياً للفظ الكلمة بشكل خاطئ أي بكسر الكاف أضيفت إليها الواو فأصبحت تُكتب حديثاً (الكورد)، أما كلمة (أكراد) فجاءت قياساً على [أتراك جمع تركي]، ولكن بعض القوميين الأكراد يعترضون على هذا المصطلح حيث يرون أن من يستخدم هذا المصطلح وهو على وزن "أفعال" يقصد انتقاص الكرد وذلك استناداً على بيت من ألفية ابن مالك: "أفعِلة أفعُل ثمَ فِعلة ثمّة أفعَال جُموع قِلّة".

معظم الكُرد يتحدثون إضافة للغتهم الأم بلغات الأقوام المجاورة لهم كالعربية والفارسية والتركية، أما بالنسبة للغة الكردية فهي من اللغات الغنية باللهجات المختلفة، وتنتمي هذه اللغة إلى فرع اللغات الإيرانية والتي تنتمي بدورها إلى اللغات الهندو أوروبية. تنقسم اللغة الكردية إلى لهجات أربعة هي اللهجة (الكرمانجية الشمالية) ومنها البهديانية والبوتانية والهكارية والأرزكية والشكاكية، واللهجة (الكرمانجية الجنوبية) ومنها السورانية والأردلانية والهورامانية والكورانية والاموكريانية، واللهجة (اللورية) ومنها الكلهورية واللكية والبختيارية، وأخيراً اللهجة (الزازكية).

يشكل كُرد سوريا ٪6 من مجموع الكُرد في العالم، وتتراوح التقديرات غير الرسمية لأعدادهم في سوريا ما بين مليون ومليوني نسمة، وبعض المصادر الكردية ترفع تلك التقديرات إلى ثلاثة ملايين نسمة من أصل أكثر من 23 مليون هم عدد سكان سوريا أي لتصل إلى حوالي ٪13 من مجموع السكان في سوريا، وغالبهم مسلمون. يعيش معظمهم في شمال شرق البلاد في منطقة الجزيرة بمحافظة الحسكة، ومنطقة عفرين شمال حلب، ومنطقة كوباني (عين العرب). وقد هاجر العديد من أبناء هذه المناطق إلى دمشق وريفها بحثاً عن فرص أفضل للحياة.

كان يوم الخامس من تشرين الأول عام 1962 يوماً فاصلاً في تاريخ الشعب الكردي في سوريا، حيث تُقرر يومها في عهد الرئيس ناظم القدسي تنظيم الإحصاء الاستثنائي الذي سمي بـ"إحصاء الحسكة"، وكان هدف الحكومة المعلن منه "التعرف على المهاجرين الغير قانونيين من تركيا إلى شمال شرق سوريا"، ونجم عن هذا الإحصاء انقسام الشعب الكردي إلى ثلاثة أقسام: أكراد يتمتعون بالجنسية السورية، وأكراد مجردون من الجنسية ويسجلون في القيود الرسمية على أنهم أجانب، أما القسم الثالث فهم الأكراد المجرّدون من الجنسية الغير مقيدين في سجلات الأحوال المدنية الرسمية، وهم من أطلق عليهم اسم (مكتوم القيد)، ويشير هذا الاصطلاح إلى عدم وجود الشخص المعني في السجلات الرسمية، وهذا في حال لم يستطيعوا إبراز بيانات تدل على أن أجدادهم كانوا مسجلين في سجلات النفوس العثمانية قبيل عام 1920.

أدى هذا الإحصاء لتجريد ما يقارب المليون كردي من جنسيته السورية ليظل بلا هوية ممنوع من ممارسة أي حق من حقوقه المدنية كالزواج من مواطن سوري أو السفر خارج حدود البلد لعدم تملكهم لجواز سفر أو العمل في أي من دوائر ومؤسسات الدولة الحكومية أو التملك للأراضي والعقارات أو الدراسة في كليات الطب أو الهندسة في سوريا وغيرها من أبسط الحقوق التي يجب أن يتمتع بها أي إنسان.

بعد حوالي الثلاثة أعوام أي في عام 1965 قررت الحكومة السورية إنشاء ما يسمى بالحزام العربي في منطقة الجزيرة وذلك على امتداد الحدود ما بين سوريا وتركيا. امتد هذا الحزام بطول ثلاثمائة كيلو متر وبعرض عشرة كيلو مترات، امتداداً من الحدود العراقية في الشرق إلى رأس العين في الغرب. جرى بموجب هذا المشروع مصادرة الأراضي التي كان يعيش فيها الأكراد منذ القدم ووزعتها الحكومة على العائلات السورية بعدما اغتنمت فرصة بناء سد الفرات لتستولي على أراضيهم وتقيم مزارع مزودة بالماء والكهرباء والمدارس وتوزعها على الفلاحين العرب الذين غُمرت أراضيهم بمياه السد. كان هذا المشروع سبباً في تفريغ المنطقة الحدودية بين سوريا وتركيا من سكانه الأصليين الأكراد، وتوطين أسر عربية فيه (تم توطين أربعة آلاف أسرة عربية في الشريط الحدودي وتوزيع أكثر من سبعمائة ألف دونم من الأراضي المصادرة عليهم) لقطع أواصر الارتباط الجغرافي بين أكراد سوريا وأكراد تركيا وفصلهم عن امتدادهم القومي خارج الحدود السورية.

كانت هذه سياسة واضحة لتعريب المنطقة وطمس الهوية الكردية فيها، حيث حذت سوريا حذو تركيا وامتدت بأسلوب التعريب ليشمل أسماء القرى والمدن والمواقع المعروفة بأسماء كردية منذ القدم لتستبدلها بأسماء عربية. يقول في هذا المنصف العربي في مجلة الحوار "سمي جبل الأكراد باسم جبل حلب بينما كان الأجدر أن يطلق على جبل سمعان اسم جبل حلب لأنه لا يبعد أكثر من ثلاثين كيلو متراً من حلب، بينما يبعد جبل الأكراد عن حلب حوالي تسعين كيلومترا خاصة وإنه يمتد داخل الأراضي التركية لمسافة أربعين كيلو متراً أيضاً".

كما ترافقت عملية الطمس هذه مع قمع الحكومة السورية للحركة السياسية الكردية واعتقال نشطائها واغتيال قادتها. يقول فيصل يوسف (عضو المكتب السياسي في الحزب الديمقراطي التقدمي الكردي وعضو اللجنة العليا للتحالف الديمقراطي الكردي في سوريا) أن "حزبه يمارس نشاطه منذ 14 حزيران 1957 وعلى الرغم من ظروفه الصعبة في العقود السابقة، إلا أن الحزب يعمل حالياً بشيء من العلنية شأن غيره من الأحزاب الكردية وحسب الظروف، وقد تغض السلطة النظر عن نشاطاته أحياناً وتحاول منعها تارة أخرى". وكمثال بسيط على قمع الحكومة السورية للحركات السياسية والحزبية الكردية قيام محكمة أمن الدولة في 9 تشرين الأول عام 2005 بإصدار حكم بالسجن لمدة سنتين ونصف على أربعة أكراد من حزب الاتحاد الديمقراطي المحظور في سوريا، وكانت تهمتهم "الانتماء إلى تنظيم سري واقتطاع جزء من أراضي البلاد وضمها إلى دولة أجنبية". علماً أن الأحزاب والمجموعات الكردية في الوقت الحالي لا تطالب بالانفصال عن سوريا، بل أقصى ما تصل إليه مطالبها هو الحصول على حكم ذاتي للأقاليم التي يشكلون أغلبية السكان فيها، كما تطالب تلك القوى بالمساواة السياسية.

وكذلك حرمت الحكومة السورية الأكراد من التحدث بلغتهم الخاصة ومنعت الموسيقى والأغاني الكردية. ومما زاد في معاناتهم استقدام الدولة لآلاف الموظفين العرب ليشغلوا الوظائف المختلفة في دوائر الدولة ومؤسساتها ومدارسها وتقديمها الكثير من التسهيلات لهم للسكن في الجزيرة، في ذات الوقت الذي منع فيه العنصر الكردي من شغل هذه الوظائف.

حدثت في 12 آذار 2004 أسوء اضطرابات عرفتها المنطقة الكردية في سوريا وذلك أثناء مباراة كرة قدم في ملعب القامشلي (التابعة للجسكة) حين نشب صراع كبير بين مشجعي الأكراد (فريق القامشلي) ومشجعي العرب (فريق دير الزور)، وسرعان ما تدخلت قوات الأمن وامتدت لبقية المدن الكردية واستمرت ستة أيام انتشرت فيها أعمال العنف إلى مناطق مجاورة لتصل حتى حلب والعاصمة دمشق، وكانت نتيجتها مقتل أربعين شخصاً حسب المصادر الكردية، أما حسب الحصيلة السورية الرسمية فكانت النتيجة مقتل خمس وعشرين شخصاً، هذا إضافة إلى مئات الجرحى. كما تمت حملة اعتقالات في المنطقة واستناداً إلى منظمة العفو الدولية فإنه قد تم اعتقال ما يقارب الألفي شخص من الأكراد وكان من بينهم نساء وأطفال بعمر 12 سنة، كما تم فصل العديد من الطلاب الأكراد من الجامعات.

إن كل هذه الإجراءات الاستثنائية وسياسات التمييز العنصري التي مارستها الحكومة السورية اتجاه الكرد كان لها فاعليتها وتأثيراتها اللاإنسانية على كافة أفراد الشعب الكردي في سوريا سواء من الناحية الاقتصادية كندرة العمل، أو الاجتماعية من حيث الفقر والحاجة والتخلف أو التعليمية أو السياسية. وكذلك منع الأكراد من ممارسة حقوقهم الثقافية الكردية وتقاليدهم الشعبية، إضافة إلى معاناة المجردين من الجنسية وحرمانهم من حقوقهم المدنية كالسفر والتملك، مما جعلهم بالتالي محرومين من اللحاق بركب الحضارة البشرية التي تتطور بسرعة لا يمكن مجاراتها في جو كالذي يعيش فيه الأكراد السوريون من قيود ونبذ وقمع وطمس للهوية.

إن على أية جهة تتصدى للمرحلة القادمة في سوريا أن تولي هذا الملف العناية الفائقة وذلك منعاً لاتجاهه نحو منزلقات خطيرة لا تحمد عقباها، كما ويجب إحاطة هذا الملف بالدراسة العميقة للتاريخ والجغرافيا وقراءة الواقع قراءة صحيحة ليكون ملفاً وطنياً وجزءاً لا يتجزأ من الملف الوطني الأكبر: سوريا الحرة الموحدة.

أنا الجسد أعلن انشقاقي وهذه هويتي!

■ نبراس شحيّد

في الذكورة المشوّهة

حين كنا طلاباً في الجامعة، كنا مجبرين على تخصيص نهار كامل أسبوعيّاً لـ"التدريب العسكري الجامعي". في الإطار ذاته، كنا مرغمين أيضاً على المشاركة في معسكرات صيفية، كانت أشبه بمعسكرات الاعتقال. "يا حيوانات يا ولادين الـ... منك إلو"، يحيّينا المقدّم المسؤول عنا في الصباح. نهرول كالأيتام، نتدافع، نهرب إلى خيمنا الممزقة، فيتعقبنا الضباط. يعاقبنا المقدم، عراة الصدر تحت شمس مدينة الضمير الحارقة، لأننا لم نستمع إلى حديثه الشيق! اللغة السائدة في الأجواء هذه هي لغة شتائم "الزنار وما دونه"، أما الثقافة المهيمنة فهي ثقافة هدر الوقت بامتياز: ثقافة تتكفّل تشويه ما بقي من حياتنا الجامعية. هي ثقافة اللهو بكل شيء يمكنه أن يخفّف من وطأة الزمن الخاوي ("لعب الشدة"، صيد العقارب...) في ظروف كنا نُمنع فيها من ادخال الكتب إلى المعسكر! هي ثقافة إذلال الطلاب التي تتيح لبعض المشرفين عليهم أن يفرغوا ما في جعبهم من عقد النقص ومرارة الحياة. هي نوعٌ من الثقافة العبثية الممنهجة التي كانت كفيلة إغراقنا في فراغ وجودي عميق، نشعر فيه بانعدام قيمتنا، وبرتابة الزمن الذي يحكمنا، لا بل بحقارة أجسادنا! كان يكفي مثلاً أن نضع البدلة العسكرية علينا حتى نصير "زعرانا"، بحسب تعبير إحدى صديقاتي في الجامعة، "نلهث وراء زميلاتنا في الكلية كضوار جائعة لا ترى في الجسد إلا أداة تثير الشهوة"، لا شخصاً ينضح بالحياة! كان ارتداء البدلة كفيلاً لكي "تتبهدل" لغتنا الجامعية، وتختزل في قاموس السباب والجنس العصابي الذي يُسقط الحب والكرامة من مفرداته. باختصار، كان ارتداء البزة العسكرية، وما تمثّله من تشوّه ثقافي، كافياً لكي ينحط شيء عميق من إنسانيتنا، فتُسطّح اللغة والزمن، ويُختزل الجسد في جسم مشيّأ لا همّ له إلا البحث عن متعة مفقودة.

في الثقافة العدمية

تشكّل الثقافة المسطحة هذه، حين تصيب جسد المؤسسة الجامعية، تجلياً فاضحاً لحال الثقافة التي بناها النظام في مجتمعنا، فتُوسّع بما تولّده من اسراف في اللامعنى، وبما تحمله من تتفيه للجسد والزمن واللغة، من الهوة التي تحكم ثقافتنا العربية بين جسم وظيفيّ ونَفَس مفكرة متعالية، لا شاغل لها إلا إخضاعه! يغرق الإنسان هكذا في فصام "المادي" عن "الروحي"، و"الديني" عن "الدنيوي"، لأن تحويل الجسد محض أداة، أو كتلة من الوظائف البيولوجية، قد يدفع الإنسان، من جهة أولى، إلى العيش على مستوى الحاجة الخام، فتنحصر حياته في هموم الأكل والشرب والجنس. تالياً، تحط حال هذه من مكانة المرأة، لتتحوّل جسداً يسهل امتلاكه، فتصير الأنثى محض "جنس لطيف"، يتوطّد معه تحجّر الثقافة الذكورية العاملة في عقليتنا. لكن ثقافة اختزال الجسد هذه لا تكتفي بتقليص الوجود إلى الحاجات المباشرة، بل نراها تعزّز، من جهة ثانية، ظهور أنواع من التدين المنفصلة عن الواقع، لأنها لا ترى في الجسد إلا سجناً وغربة، فتلجأ إلى واحات "التقويات" هرباً من وجود صار هباءً، فتضيع في الماورائيات. ثقافة اختزال الجسد هذه عدمية، لأنها تُفلت من كثافة الوجود لتلتجئ إلى عوالم الغيب متناسية الحاضر، أو تنحصر في مباشريته البيولوجية المحضة. الثقافة هذه عدمية، لأنها تقسم الإنسان على ذاته، فيتغرّب بين "جسد" و"نفس" متحاربين، على نحو يحط من مسارات الفكر ومن ابداعات الجسد. الثقافة هذه عدمية، لأنها تُلحق المرأة بالرجل، لتصير ملكاً له ومصبّاً لأهوائه.

في الأنوثة الحية

الصورة النمطية هذه عن الأنثى هي اليوم في صدد التفكك. يذكر معن العاقل في مقاله عن الفنانة هبة العقاد، ابنة حي الميدان الدمشقي، ما يأتي: "مع انطلاقة الثورة السورية، كانت هبة الحرة في المقدمة... كانت تمتلك حرية الفنان وفرديته، وحرية الأنثى الشخصية، لكن هذه الحريات مقيدة بسلاسل المجتمع المعنوية، وأكثر من ذلك بسلاسل الاضطهاد والقمع السياسي والفكري والحضاري لسلطة أوغلت في الاستبداد. فجأة، صار أهل الميدان يسألون أبا هبة عن ابنته ويطمئنون عليها، وراح الشباب الذين سبق لهم أن افترسوها بنظراتهم غيظاً من تجرؤها على قيودهم، وربما نعتوها بأبشع النعوت، راحوا يشكلون بأجسادهم درعاً للدفاع عنها وعن زميلاتها في التظاهرات، وكان العار ذاته، عار الحرية، الذي دفع والدها لطأطأة رأسه، هو الذي جعله يرفعه من جديد تفاخراً بابنته" (كلنا شركاء، 2012/6/13). نساء اليوم يقدن تظاهرات كبيرة، يرسمن على الجدران، يصفّقن، يغنّين في أزقة الثورة، يكسرن سجون الماضي، يعبّرن بأجسادهن عن شوق الى وطن، فيحيا الجسد على اتساع الرغبة في الحرية. تعمل الناشطات مع الناشطين ليلاً من دون حضور الأب أو الأخ الرقيب، ليطغى عصر التحرّر على ما كان يُسمى سابقاً "عصر تحرير المرأة". يقول الصديق العزيز بطرس الحلاق: إن "تحرر المرأة ذاتيا لا بنعمة يسبغها الرجل المنفتح، وتحرر الرجل من فحولته ومن وهمه بأنه هو القادر على تحرير المرأة. وهل نرضى، بالعودة إلى نقاش فلسفي عن العلمانية ووجوهها، أو فقهي - لاهوتي عن الصيغ المناسبة للمساواة بين المرأة والرجل؟ حراك الشبيبة يدعونا إلى موقف صريح، يقول بالمساواة المطلقة بين الرجل والمرأة، بدون تسويغ أو وأوأة فلسفية أو دينية" (السفير، 2012/3/16). تذكرني كلمات بطرس بما قالته يوما الناشطة "أم قتيبة"، الخارجة من صلب المجتمع التقليدي: "لم أعد أخاف الرجل لأنني ببساطة لم أعد أخاف وحشية النظام!". كلمات "أم قتيبة" بيّنة، فسلطة الرجل الشرقي على المرأة من سلطوية ثقافة النظام الديكتاتوري، وتحرر المرأة هو قبل كل شيء تحرر الوطن من تهشّم ثقافة الجسد الذي أصابته!

في أزقة الرغبة

لم تعد الأنثى عورة، بل صارت ثورة، ولذا تُغتصَب: "لقد اغتصبوك لأن الثورة أنثى"، تكتب نساء الجولان المحتل على ثياب بيضاء معلّقة على حبل غسيل (2012/8/24)! أوجدت الثورة مساحة جديدة للأنثى، لأنها أوجدت زمناً جديداً، فالزمن الماضي كان رتيباً، لا بل خاوياً نبحث عن ملئه وكأنه ثقب في جدار! أما زمن اليوم، فيحمل حضوراً جديداً حين يخرج عن أطره التقليدية، ليرفض أن يبقى محض تتابع أعمى للحظات تتكرّر بلا جدوى، بل تصير كل لحظة استثنائية تتعارك فيها الحياة مع الموت، ويولد من رحمها شيءٌ جديد، فتنقلب اللحظة مدىً! في مدى اللحظة المتجدّدة، يكتسب وجود الأنثى معنىً جديداً من خلال النضال الذي تلتزمه ناشطةٌ، صحافيّةٌ، ممرضة، منظّرة، فنانة، شهيدة، أمّاً وأختاً لشهيد وحبيبة. "إن كانت رجولتك مشروطةً بغشاء بكارتي، فهي حتماً زائلة بزواله"، تقول لافتة أنثوية أخرى، فأنا لم أعد جسماً هزيلاً تمتلكه، لأنني أشتري حريتي، مثلك، بجسدي بدمي! في مدى اللحظة، يُسقط الجسد صورته القديمة، لأنه لم يعد أداةً نمتلكها نستعملها، أو محض حاجات نشبعها، أو سجناً نفر منه، بل نراه يخرج من قمقمه ليحتل بديناميكيته فضاء المشهد، لتتدفق الأجساد إلى الشوارع غاضبة، وإلى القبور حكايات لا ننتهي من سردها. الجسد يحضر الآن وهنا، بالأنوثة، بالذكورة، بالكلمات، بالهتاف، بالرقص، بالجراح، بالآلام، ليصير الجسد نفسه رغبةً في الحرية متجسدة. تالياً، تدفع المساحة الجسديّة الجديدة الفكرَ إلى أن يثور على ذاته ليولد جديداً من رحم الرغبة المتجسدة هذه، متجاوزاً القوالب القديمة التي جمّدت "الجسد" وجعلت من "الروح" صنماً. يدفع انشقاق الجسد عن ماضيه الفكرَ إلى التخلي عن حلله القديمة المتعالية، لينبع من حياة الجسد، بتطلعاته ومعاناته، متجذراً في فيض المعنى الذي توجده اللحظة حين تكسر ايقاعها القديم.

النهار اللبنانية 8 / 9 / 2012

شهداء سوريا

مجموع الشهداء (24431)

دمشق: 1340
ريف دمشق: 4203
حمص: 6250
حلب: 2089
حماه: 2305
اللاذقية: 462
طرطوس: 45
درعا: 2418
دير الزور: 1628
الحسكة: 133
القنيطرة: 46
الرقة: 94
ادلب: 3401
السويداء: 17

2602 عدد العسكريين
21829 عدد المدنيين
1396 عدد الإناث
670 عدد الأطفال الإناث
1623 عدد الأطفال الذكور

المصدر: مركز توثيق الانتهاكات في سوريا 8 / 9 / 2012
http://vdc-sy.or